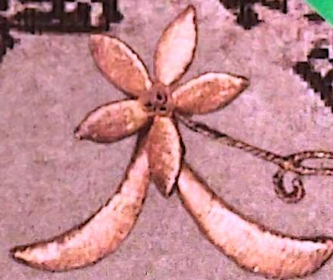
أودور آفا أولافسدوتير

ترجمة: محمّد آيت حنّا



رواية

دار الآداب

الكلمة الأجمل

الكلمة الأجمل

أودور آفا أولافسدوتير

الكلمة الأجمل

ترجمة: محمَّد آيت حنَّا

رواية

دار الآداب

الكلمة الأجمل

أودور آفا أولافسدوتير/كاتبة أيسلنديَّة

ترجمة: محمَّد أيت حنّا

الطبعة الأولى عام 2023

Dýalíf

Published by arrangement with Éditions Zulma, Paris

ISBN 978-9953-89-755-4

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:
www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab   Instagram: @daraladab   Twitter: @DarAlAdab

إلى من رحلوا إلى هناك،

إلى من هم الآن هنا،

إلى من سيأتون..

من الكلمات كلِّها، أجملُها

سنةَ 2013، دُعيَ الأيسلنديُّون إلى انتخاب أجمل كلمةٍ في لغتهم، فاختاروا اسمًا من تسعة حروف، يُشير إلى مهنةٍ طبِّيَّة: ljósmóõir، أي قابلة. وبيَّنت لجنةُ التحكيم في تقريرها أنَّ الاسم المذكور يجمع بين كلمتيْن رائعتيْن: móõir ومعناها أمّ، وljós ومعناها نور. أمُّ النور. تحوي الأيسلنديَّة مرادفاتٍ كثيرةً لهذه الكلمة: yfirsetukona أو حارسة، náverukona أو حضور، jóõmóõir أو مولِّدة، léttakona أو بَطنيَّة، nærkona أو مساعدة، ljósa أو صَفاء. في اللّغة الدنماركيَّة، يُقال jordemor، وفي النرويجيَّة jordmor، وفي السويديَّة barnmorska، وفي الفنلنديَّة kätilö، وفي الإنجليزيَّة midwife، وفي الألمانيَّة Hebamme، وفي الهولنديَّة verloskundige، وفي البولنديَّة potozna، وفي الفرنسيَّة sage-femme، وفي الإيطاليَّة ostetrica، وفي الإسبانيَّة comadrona، وفي البرتغاليَّة

parteira، وفـي الإسـتـونـيَّـة ämmaemand، وفـي الـلاتـفـيَّـة vecmate، وفي اللتوانيَّة akusere، وفي الروسيَّة акушерка، وفي اليديَّة אַקושערקע، وفي الإيرلنديَّة cnaimhseach، وفي الغالية bydwraig، وفي العربيَّة قابلة، وفي العبريَّة מיילדת، وفي الكاتالانيَّة llevadora، وفي المجريَّة szüleszno، وفي الألبانيَّة mami، وفي الباسكيَّة emagina، وفي الكرواتيَّة primalja، وفي التشيكيَّة porodni asistentka، وفي الصينيَّة 助产士، وفي الرومانيَّة moasa، وفي اليونانيَّة μαία.

لا تتَّصف معاني هذه الكلمات بالوضوح دائمًا، لكنَّها تُشير في الغالب الأعمّ إلى امرأةٍ تساعد امرأةً أخرى في إخراج طفلٍ إلى العالم. وفي أغلب الحالات، تشير الكلمة اشتقاقيًّا إلى أنَّ الأمر يتعلَّق بامرأةٍ مجرِّبة، امرأةٍ يمكن أن تكون جدَّة الطفل من جهة أمّه.

I

أمّ النور

II

زوولوجيا للمبتدئين

I

أمّ النور

لا أدري من أتى بي إلى العالم، ولا ما العالم، ولا حتى من أنا؛ أنا في جهلٍ فظيعٍ من كلّ شيء؛ لا أدري ما جسدي، وما حواسّي، وما نفسي، ولا حتى ما هذا الجزء فيَّ الذي يفكّر فيما أقوله، الجزء الذي يفكّر في كلِّ شيء، ويفكّر في نفسه، ولا يعرف نفسَه، مثلما لا يعرف أيّ شيء.

بليز باسكال

أستقبلُ الطفلَ ساعة ولادته، أنتشله من الأرض وأُقدِّمه إلى العالم

ينبغي أن يولد الإنسان أوّلًا، ليكون بمقدوره أن يموت

إنَّ الظهيرة وشيكة، أخيرًا يتبدَّد الليلُ القطبيّ. كرةُ اللهب تبرز في الأفق، وخيطُ نورٍ واهنٌ، بالكاد يفوق عرضُه مشطَ جيْبٍ، يتسلَّل من خلال ستائر قاعة الولادة، فيُضيءُ المرأةَ التي تعاني المخاض راقدةً على السرير. ترفع ذراعها، تبسطها لتمسك بالنور، ثم ما تلبث كفّها المفتوحة أن تهوي على جلد بطنِها المشدود وشمُ حبَّةِ كيوي مشطورةٍ إلى نصفيْن، كأنَّما قطعَتها سكِّينٌ حادَّة؛ لقد تصدَّع الرَّسمُ، وتباعدت الحروف الموشومة أسفَلَه، إ لـ يـ ك إ لـ ى ا لأ بـ د.

حين يظهر الولد، ستتضامُّ قطعتا الكيوي، وتلتحمان.

ارتديت قناعي وبلوزتي.

ها نحن أولاء.

أخطرُ التجارب في حياة الإنسان.

الولادة.

يبرز الرأسُ، ثم، بعده بلحظاتٍ، يكون بين ذراعيَّ الجسمُ الصغير الدبقُ المغطّى بالدم.

إنَّه ولدٌ.

لا يدري من هو، ولا من أتى به إلى العالم، ولا ما العالم.

كان على والده أن يترك الهاتف، ليقطع حبلَه السرِّيّ، بيدٍ مرتعشةٍ يقصّ الرباط بين الطفل وأمّه.

تُدير رأسَها، وتنظر إليه.

ـ هل يتنفَّس؟

ـ نعم يتنفَّس.

قلت لنفسي إنَّه، ابتداءً من اليوم، سيتنفَّس ثلاثًا وعشرين ألف مرَّةٍ في اليوم.

أضع في الميزان كتلة اللحم الصغيرة وهي تصيح. يضرب الطفل بذراعيْه، لم يعد ثمَّة جدرانٌ، لا حدودَ، لا شيءَ يحدُّ العالَمَ، لا شيءَ يحدّ هذا المجهولَ الشاسع، هذه الأراضيَ غير المستكشفة.

إنَّ الرضيع يخوض سقوطًا حرًّا، ثم ما يلبث أن يهدأ، وقد

تغضَّن وجهُه، شوَّهَه القلق. يُشير المحرارُ على حافَّة النافذة، من الخارج، إلى أربع درجاتٍ تحت الصفر، والحيوان الأوهنُ على سطح الأرض يرقد على الميزان، عاريًا معدمًا، لا ريشَ يحميه ولا فروَ، لا صدفة ولا شعر، لا شيء سوى زغبٍ خفيفٍ على قنَّة رأسه، زغبٍ خفيفٍ يخترقه ضوء النيون الأزرق.

يفتح عينيْه لأوَّل مرَّةٍ.

يرى النور.

يجهل أنَّه للتوّ وُلد.

أقول له، مرحبًا، يا صغيري.

أمسح رأسَه، ألفّه في منشفة، وأسلِّمُه أباه الذي يرتدي تي ـ شرت كُتب عليه **أفضل أبٍ في العالم**.

الرجل يبكي من فرط التأثُّر. لقد انتهى الأمر. كذلك تشهقُ بالبكاء الأمُّ المنهكة.

ينحني الوالدُ بولدِه ويضعه بحذرٍ على السرير، إلى جانب المرأة. يُدير الطفل رأسَه شطرَ الأمّ. ينظر إليها، وعيناه ما تزالان عامرتيْن بالظلمات القادمة من مغاور العالم.

لا يعلم بعدُ أنَّها أمّه.

تنظر إليه وتداعب خدَّه بأصبعها. يفتح فمه. يجهل لما هو هنا، بدلًا من أن يكون في مكانٍ آخر.

تلاحظُ النفساءُ:

ـ إنَّ شعرَه أصهب كشعر ماما.

هو ولدُهما الثالث.

يعلِّق الأب:

ـ جميعهم وُلدوا في شهر ديسمبر.

أستقبل الطفل ساعة ولادته، أنتشله من الأرض وأُقدِّمه إلى العالم. أنا أمّ النور. من بين كلمات لغتنا جميعِها، أنا الكلمةُ الأجمل: *ljósmoõir*.

ثلاث دقائق

بعد أن عقدت غرزتيْن، تركت الأبويْن يستفردان بطفلهما برهةً. يعرض لي، بين ولادتيْن، أن أخرج إلى الشرفة الصغيرة المطلَّة على المحجّ، حين لا تكون الريح قويَّةً بما يكفي لتفتح الباب في أقصى الردهة. تحوي مصحَّة الأمومة تسع غرفٍ. عمومًا، أقبل طفلًا في اليوم. لكنْ يحدث أن يولد ثلاثة. في فترات الاكتظاظ، في عزِّ الموسم، تضع الأمَّهات مواليدهنَّ في الكافتيريا، أو في غرفة الانتظار، أو حتى في المصعد المؤدِّي إلى جناح الولادة. ذات مرَّةٍ، اضطررت إلى أن أركض حتى المرأب لأقبل طفلًا لزوجيْن شابَّيْن مرعوبيْن، في مقعد الراكب لسيَّارة ڤولڤو عتيقة. بعد أن أُمضي سحابة يومي غاطسةً بيديَّ في الدم واللحم، يكون تأمُّل قبَّة السماء سعادةً ما بعدها سعادة.

أشهق عميقًا، لأعبّ الهواء المنعش ملء رئتيّ.

تقول زميلاتي:

ـ لقد خرجَت تشمّ الهواء.

خلال الأسابيع الأخيرة، شهِدنا طقسًا شديد الاضطراب.

في الأيَّام الأولى من الشهر، كان المحرار يُشير إلى حرارةٍ من رقميْن، وأخذت الطبيعة تستيقظ، وبدأت الأشجار تخضرّ. في الرابع من ديسمبر، سجَّلت محطَّة الطقس، الواقعةُ في أقصى الشمال، تسع عشرة درجةً، ثم برُد الجوّ بغتةً، خسرنا في أربعٍ وعشرينَ ساعةً عشرين درجةً، وسقطت الثلوج بكمِّيَّاتٍ مهولة. شقَّ على كاسحات الثلج إزالة الانجرافات، السماء مليئةٌ بالندف، وأغصان الأشجار تنحني بثقل الثلوج، والسيَّارات تختفي تحت معطفٍ أبيض سميك، وحين يخرج المرء ليلقي بالنفايات يغوص في الثلج حتى الرُّكب. ثم أتى الدور على وابلٍ من المطر القيعيّ، وتسبَّبت سدودٌ من الثلج في انحراف الأنهار عن مجاريها، فأغرقت المياهُ الطرقَ والحقول، مخلِّفةً في أعقابِها وحلًا وحصًى لا غير. منذ أيَّام، أفاد التلفزيون بأنَّ عشرين من الخيل قد علقت بسبب السيول في مقاطعة سودرلند. صارت المزارع تبدو جزرًا معزولةً وسط المياه، وقال مزارعٌ إنَّه قد اضطرّ إلى الذهاب في قاربٍ ليُعيد الخيول التي قصدت إلى البرّ سِباحةً. يفترض أن نجد حيواناتٍ أخرى بعد انحسار الماء.

قال المزارع للصحفيّ الذي أتى يستجوبه:

ـ لم يعد شيءٌ طبيعيًّا.

وافقَته الرأيَ أختي، وهي عالمةُ أرصاد.

أضاف:

ـ نتمنّى أن يعود، قريبًا، كلّ شيءٍ إلى طبيعته.

في زقاق ليوشفالاغاتا، أفاضت السيولُ الجارفةُ المجاريَ، فأغرقت عديدًا من الأقبية. حين نزلتُ أفحص قبوي، وجدت فيه شجرةَ أعيادِ ميلادٍ اصطناعيَّة وصندوق كرتونٍ مليئًا بديكوراتٍ خلّفَتها خالة أمّي. حملتُها إلى الطابق الثالث. وهذا الأسبوع، نشهد جليدًا ينفلق لبرودتِه الحجرُ، تحوَّل البلد بأكمله إلى حلبة تزلُّجٍ فعليَّة، حتى إنّي ولَّدتُ امرأتيْن وُضعت ذراع كلٍّ منهما في الجبس لأنَّهما انزلقتا على الجليد. الشيء الوحيد الذي ظلَّ ثابتًا طيلة هذا الشهر هو الريح، والليل. يرافقني الظلامُ حين أنطلق إلى العمل، ويرافقني الظلامُ حين أقفل عائدةً إلى بيتي.

عند عودتي، وجدت والد المولود أمام ماكينة القهوة. أشار لي برغبته في الحديث إليّ. هو وزوجته مهندسا كهرباء.. وكما تقول زميلاتي، صرنا نشهد تزايدًا في عدد الأزواج الذين يمارسون المهنة نفسَها: بيطريَّان، صحفيَّان، رياضيَّان، راهبان، شرطيَّان، مدرِّبان، كاتبان. بينما يختار المهندس مشروبَه، بيَّن لي أنَّ الولادة كان يُفترض أن تتمّ يوم 12، أي موافقةً لعيد ميلاد والده هو، وأضاف أنَّ الطفل تماطل أسبوعًا.

رشف جرعةً من كوب الكرتون، وعيْناه خفيضتان تنظران إلى السجَّاد. يبدو لي أنَّه يحمل همًّا! حين فرغ من شرب قهوته، سألني عن الطريقة التي نحدِّد بها ساعة الولادة.

ـ نأخذ بعيْن الاختبار لحظة خروج الوليد.

ـ وليس لحظة قطع الحبل؟ أو لحظة صراخ الوليد؟

ـ لا.

أجبته وأنا أفكِّر في أنَّ ليس كلّ الولدان يصرخون. ولا حتى كلّهم يتنفَّسون.

ـ حسنًا، الحقُّ أنِّي أتساءل ما إذا كان من الممكن تسجيل توقيت ولادته 12 س و12 د، بدلًا من 12 س و09 د. هي ليست سوى ثلاث دقائق.

جعلتُ أتأمَّله.

لقد أتيا إلى المصحَّة الليلةَ، فلم ينَم إلَّا قليلًا.

خلص وهو يسحق الكوب:

ـ سيعوِّضني ذلك عن كونه لم يولد في اليوم الثاني عشر من الشهر الثاني عشر.

أخذت أفكِّر.

هذا الرجلُ، يطلب منِّي أن أعلن أنَّ ابنَه لم يعشِ الدقائق الثلاث الأولى من حياته.

ألحَّ في الطلب:

ـ سيُسعدني كثيرًا أن تفعلوا.

قلت:

ـ ربَّما لم أتحقَّق جيِّدًا من وقت الولادة.

ألقى بكوبه في سلَّة النفايات، وعدنا معًا إلى الغرفة حيث تنتظره الأمّ والوليد.

توقَّف عند الباب.

ـ أعلم أنَّ غيردور كانت تريد صبيَّةً، وإن لم تُبدِ ذلك. النساء يرغبنَ في إنجاب البنات.

بعد تردُّد وجيز، أخبرني بأنَّهما قرآ مقالًا يشرح طريقة اختيار جنس المولود، لكنَّهما للأسف قرآه بعد فوات الأوان.

قال وهو يمدّ لي يدَه، ويشكرني على مساعدته:

ـ ما ينبغي أن يقع، يقع.

ثم خلُص الرجل المولع على ما يبدو بالإحصاءات:

ـ إنْ تأمَّلنا الأمرَ، فإنَّ عشرين مليونًا من البشر يشاركون ابني عيدَ ميلاده.

لا شيءَ تحت الشمس بمقدوره أن يفاجئ امرأةً راكمت في المهنة تجربةً طويلةً، اللّهمَّ إلَّا الإنسان نفسه

كثيرًا ما تخضع مهنة القابلة لمنطق النِّسابة، إذ تُورَّث من الأمّ للابنة.. وأنا أنتمي إلى الجيل الرابع من القابلات في عائلتنا. كانت جدَّة أمِّي تمارس المهنة في شمال أيسلندا خلال النصف الأوَّل من القرن العشرين، وابنتُها، خالة أمِّي، اشتغلت في مصحَّة التوليد ما يقارب خمسين سنةً. أمَّا خالتي، فقابلةٌ في مدينةٍ صغيرةٍ بمقاطعة جوتلند الدنماركيَّة. مؤكَّدٌ كذلك أنَّ أحد أسلافنا الذكور مارس المهنة، وأبصر على يديْه النورَ أزيدُ من مائتي طفل. إنَّ غيسلي رايموند غودرونارسون لم يُحْبَ يديْنِ مجرّبَتيْن في التوليد فحسب، وإنَّما كان أيضًا حدَّادًا ندُر مثيله، صنع بنفسه ملاقطَه، وشتَّى الآلات عظيمةِ الفائدة.

حين بدأتُ مساري المهنيّ في مستشفى التوليد، منذ ستّ عشرة سنة، كانت روح خالة أمّي ما تزال تحوم في المكان. زميلاتي الأكبر سنًّا ما يزلنَ يتذكّرنها، لكنَّ عددهنَّ في تناقص. على أنّي ما زلت أسمع بطرائفها، حتى من أفواه النساء اللواتي لم يخالطنَها. اشتهرت بالتعليقات التي كانت تقذفها، كأنَّما تناجي نفسها، من قبيل: ***أيُّ أبلهٍ يستطيع أن ينجب طفلًا***. على أنَّ إحدى زميلاتها تؤكّد أنّها لم تنطق قطّ كلماتٍ بهذه القسوة، إنَّما قالت فقط: ***ليس الجميع مؤهَّلًا لإنجاب الأطفال***. أو حتى: ***الأبوَّة ليست في متناول الجميع***. بل إنَّها قالت، بحسب زميلةٍ أخرى، ***إنَّ إنسانًا يُعاني، لن تنتهي معاناته بمجرَّد أن يصير والدًا***. وتقول أخرى إنَّها لم تذكر قطّ إنسانًا يُعاني، إنَّما فقط إنسانًا غير مثاليّ، مضيفةً أنَّها كانت تعتبر الشفقةَ على الذات أشنَع العيوب. أسرَّت لي بعض الزميلات أنَّها كانت تفتِّش عن الأمارات لدى الأزواج المقبلين على الأبوَّة: ***إنَّ الشفقة على الذات متجذِّرةٌ في الطبيعة البشريَّة، سواءً أكانت جليَّة أم خفيَّة***.

الظاهر أنَّها كانت أيضًا تتنبَّأ بطول أعمار الزيجات. تجلسُ، فترفع فنجان قهوتها المليء إلى النصف، وبين شفتيْها قطعة سكَّر، ثم تُحرِّك الفنجان ليتغضَّن سطح المشروب:

ـ سيُرزقان بطفلٍ آخر قبل الانفصال.

غير أنَّ نبوءاتها لم تكن واضحة المعنى. تقول مثلًا: ***إنَّ هذا النسيج الذي نسمِّيه أسرةً، غريبٌ كلّ الغرابة***. بحسب زميلاتها، هي لم تكن تؤمن بالعلاقات، ولا بالزواج. . ولا حتى بالإنسان، كما أخبرتني إحداهنَّ. أقصى إيمانها بالإنسان يتلخَّص في إيمانها

به حين يكون طوله أقلّ من خمسين سنتمترًا، ويكون عاجزًا عن قضاء حاجاته بنفسه، وغير قادرٍ بعدُ على الكلام.

مهما حدث، تظلّ لازِمتُها: ***لا شيء تحت الشمس بمقدوره أن يفاجئ امرأةً راكمت في المهنة تجربةً طويلةً، اللَّهمَّ إلّا الإنسان نفسه.***

تلكم كانت طريقتها في التعبير.

شقَّ عليها، وقد بلغت الأربعين، أن تتقبَّل ما كانت تسمِّيه التغيّرات الطارئة التي طالت المهنة. لم يكن أمرًا خفيًّا. بغتةً، صار الآباء يَحضرون الولادةَ. كانت تحفُّظاتها تلك مثيرةً للاستغراب، خاصَّةً حين نأخذ بعيْن الاعتبار أنَّها كانت ترى أنَّ من الطبيعيّ والعاديّ أن يمارس رجلٌ، فيما مضى بأيسلندا، مهنة التوليد.

على أنَّ تجربتي المهنيَّة التي امتدَّت بضعة عقودٍ توحي إليَّ بشيءٍ آخر، تلك كانت طريقتها في الاحتجاج على التغيّرات التي طالت تنظيم مصحَّة التوليد. إنَّ حضور الرجال يعني، في نظرها، زيادةً في الأعباء. في الزمن الذي كانت فيه خالة أمِّي تشتغل في المصحَّة، كان أزواج الأمَّهات هم مَنْ يحضرون من جنس الذكور حصرًا. وكان رجالُ جيلها يأتون رأسًا من مكاتب عملهم، ببدلاتهم وربطات عنقهم، فلا يعرفون حتى أين يعلِّقون معاطفهم وقبَّعاتهم، فيكتفون بمدِّها إلى القابلات. وآخرون يأتون مباشرةً من ورشاتهم، بأيادٍ تملؤها القذارة. واشتكى بعضهم من خالة أمِّي، لأنَّها فضَّلت التركيز مع النساء اللواتي أتاهنَّ الطلق،

وتركت الرجال يتدبَّرون أمورهم بأنفسهم. سمعتُ أنَّ طبيبَ توليدٍ كان يحميها. لكنْ حين سألت زميلاتها لمَ كانت تحتاج إلى الحماية، لم أحصل على جوابٍ واضح. لاحقًا، ظننتُني فهمتُ أنَّها كانت عشيقةً لذاك الجرَّاح طيلة عقودٍ، لكنَّ ظنِّي لم يتأكَّد أبدًا.

أعرف بالتجربة أنْ ليس من السهل على الزوج إحساسه بأنَّه شاهدٌ على المعاناة، وشعوره بأنَّه لا يملك شيئًا.

يكتفي بأن يداعب ذراع المرأة، قائلًا بين الفينة والأخرى:

ـ أنتِ تبلين حسنًا.

فتجيبه المرأةُ بالجملة نفسها.

ـ أنت أيضًا تبلي حسنًا.

يقول الزوج معاتبًا نفسَه: لا أستطيع شيئًا. أو يقول: ما أقسى أن تشعر بأنَّك عديم الفائدة. يقول لي أيضًا: ما عدتُ أطيق. أو حتى: لم أكن أعلم أنَّها ستعاني إلى هذا الحدّ. بل حتى: ما كنت أدري أنَّ المخاض قد يستمرّ اثنتيْن وسبعين ساعة. ثم يُضيف: أبدًا لن أستطيع استيعاب تجربتها. أمَّا المواخضُ فيقُلنَ: أبدًا لن يستطيع مشاركتي معاناتي. لن يعرف معنى أن تكون مثبَّتًا بملاقطَ متوهِّجةٍ تطحنُ ظهرك.

يحدث كذلك أن يُصاب الزوج بالغثيان أو الدوار.

إذَّاك تشجِّعه المرأة بأن تقترح عليه الذهاب لشراء سندويتش. يأتي إلى المكتب ليُخبرني بأنَّ موزِّع السندويتشات فارغٌ، فأُجيبه بأنِّي لستُ مسؤولةً عن ملئه. أو يطلب بيتزا، تصله في الغرفة رقم

ب 23 من المصحَّة. كثيرةٌ هي الأشياء التي كانت لتدهش لها جدَّتي اليوم، ومَثل ذلك، علبة بيتزا على سرير امرأةٍ تعاني الطلْق. لا بل قد يضعها على الشرشف مباشرةً. وإن طال بالمرأة المخاضُ، فإنَّ الزوج يضطرّ أحيانًا إلى أن يذهب لأخذ أطفالهما الآخرين من بيت جدَّتهم لأمّهم إلى بيت جدَّتهم لأبيهم، أو العكس.

حدًّا منَّا للوقت الذي تقضيه المقبلات على الولادة في المصحَّة، واختزالًا لحركة الذهاب والإياب، وتناول الطعام في أثناء ذلك، ننصحهنَّ بألَّا يأتين إلَّا حين تحدث التقلُّصات كلَّ خمس دقائق.

حين كانت خالة أمِّي تقول إنَّ مكان الرجل ليست في مصحَّة الولادة، يبدو لي أنَّ الأمر كان يتعلَّق في ذهنها بمسألة أحجام. أستعيد كلماتها على لسان إحدى زميلاتها، كانت ترى الرجال ***ضِخامًا مرهِقين***، لا مكان لهم في عالم نِساءٍ مواخضَ وولدانٍ، عالمِ بكاءٍ ورضاعة. المشكل الأساس هو التباين في الحجم بين رجلٍ بالغٍ وطفلٍ رضيع.

كلُّ ثَديّ
يسعى إلى حَلَمة

على الرَّغم ممَّا عُرف عن جدَّتي من غرابة أطوارٍ، إلَّا أنَّ زميلاتها كنَّ يحببن الاشتغال معها. انحفرت ذكراها في ذاكرتهنَّ، لا سيَّما لسببيْن: سدادُ يدها في شغل الحياكة، والحلوى التي كانت تصنعها. ما زالت الألسن تلوك إلى اليوم ذكر فطائر المرينغ ذات الطوابق المتعدِّدة التي كانت تزيِّنها بكمِّيَّةٍ كبيرةٍ من الكمثرى أو الخوخ المعلَّب والكريمة المخفوقة. وقلب الفطيرة من حلوى الجَنَوية مبلَّلة بشراب السيريس. حين تلد المرأةُ منهنَّ، كانت خالة أمِّي تقطع قطعةً كبيرةً من الحلوى، فتحملها إليها في طبقٍ مع قهوةٍ قويَّة. كانت النساء فيما مضى يأتيْن إلى المصحَّة قبل أوان المخاض بكثير، أي ما أن تبدو عليهنَّ أوَّل أمارات دنوِّ الطَّلق، وإن تمَّت الولادة على خيرٍ، يبقين في المصحَّة أسبوعًا كاملًا. حين بدأت خالة أمِّي في مهنة التوليد، أواسط القرن الماضي،

كانت مهمَّة القابلة أساسًا الاعتناء بالوليد بينما ترتاح أمّه. سمعتُ كثيرًا من النساء المسنَّات يقُلنَ إنَّ فترات الولادة كانت عندهنَّ فرصةً عظيمةً للراحة، بعيدًا عن أعباء المنزل وتربية الأطفال. يتذكَّرن أنَّهنَّ كنَّ يتناولن الطعام في السرير، لا بل إنَّ إحداهنَّ قالت إنَّها قد زُيِّنَت وغُنِّجَت. بين أولئك النساء المرضعات كانت تنعقِد روابطُ صداقةٍ، يُعِنَّ بعضهنَّ بعضًا في لفِّ الشعر بالبكرات، يدخِّنَّ السجائر معًا، ثم يغادرن المصحَّة على أحذيةٍ عاليةِ الكعب، وقد مشَّطنَ شعورهنَّ تمشيطًا لا تشوبه شائبة.

بينما ترتاح الأمَّهات، كانت خالة أمِّي تقضي أوقاتًا طويلةً إلى جانب الرُضَّع. ما إن تفرغ الأمَّهات من إرضاعهم، حتى تعيدهم هي إلى الحضَّانة. تحملهنَّ على كتفها، تساعدهنَّ على التجشُّؤ مربِّتةً على ظهورهم ومتحدِّثةً إليهم بصوتٍ خفيض. ثم تغيِّر قماطهم، وتضعهم في الفراش. في ساعة الرضاعة، تحمل الرضيع إلى أمِّه، ثم تعيده إلى مهده، وتنتقل إلى غيره، بالدور. تُجمع زميلاتُها على أنَّها كانت تقضي وقتًا طويلًا في الحضَّانة، وأنَّها كانت تتحدَّث إلى الولدان الجدد لتهيِّئهم إلى الحياة. حُكيت لي طرائف كثيرةٌ بهذا الصدد. سُمعَت مرَّةً تقول: ***أنت هنا لوقتٍ محدود***. أو حتى: ***هيَّا، تشجَّع، ينتظرك منحدرٌ قاسٍ وحادّ***. ومرَّةً أخرى، وضعت رضيعًا في مهده قائلةً: ***ستضلّ طريقك كثيرًا***، من غير أن نتبيَّن ما إذا كانت تستشهد بالكتاب المقدَّس. كذلك كانت تقتبس من الشعراء الذين كانت تعرفهم شخصيًّا: ***لسنا نعرف الكثير، اللَّهمَّ إلَّا أنَّ الليل يوشك أن يهبط***. أو: ***لسنا نعرف الكثير، اللَّهمَّ إلَّا أنَّ النهار يوشك أن يطلع***. تختار الصيغة

المناسبة بحسب الموسم الذي وُلد فيه الطفل، أي بحسب ما إذا كانت النهارات تطول أو تقصر، وإذا ما كانت الليالي صافيةً أم مدلهمَّة.

غير أنَّ الشيء المؤكَّد الذي تتَّفق عليه *أمَّهاتُ النور*، أخواتُ خالة أمِّي، هو أنَّها قبل أن تغادر الأمَّهات المستشفى، كانت تذهب إلى الحضَّانة، فتنحني على الرُّضَّع لتودِّعهم متمنِّيةً لهم الشمس والنور والدفء. تودِّعهم بهذه الكلمات: *أتمنَّى لك أن تشهد مرَّاتٍ كثيرةً، الفجرَ والغسق*. حتى إنَّ تلك الكلمات كانت حجر الزاوية في خطاب نعيها الذي كتبَته إحداهنَّ.

كانت القابلات من بنات جيلها يقضينَ وقتًا طويلًا عند سرير الأمَّهات قبل الولادة. كثيرًا ما يغتنمنَ الفرصة في التطريز أو شغل التريكو. وإن صدَّقنا القولَ بعض الأمَّهات ممَّن وَلدن على أيدي أولئك القابلات، فإنَّ صوت إبر الحياكة وهي تتصادم، كان يفعل فيهنَّ فعلَ المهدِّئ. وبحسب زميلاتها، فقد أهدت خالة أمِّي كلَّ مولودٍ قبِلَته تريكو حاكته بنفسها. وللخدَّج منهم كانت تحتفظ بأجمل القطع، تلك التي زيَّنتها بأعقد الأشكال. كانت تحوك بحماسةٍ كبيرة، معالجةً غابةً من الإبر. حين كانت تحمل إلى الأمَّهات أطفالهنَّ، قبل أن يُعهد بهم، على حدِّ تعبيرها، إلى الربِّ وإلى رياح القدر، كانوا ملفوفين من الرأس إلى القدميْن فيما صنعته إبرُها من أكسيةٍ وسراويلَ، وجواربَ، وستراتٍ وقبّعات.

مستشارةٌ في الرّضاعة

وإنْ بلغت خالةُ أمّي سنَّ التقاعد، إلّا أنَّها واصلت العمل في المصحَّة، وعُهد إليها بعددٍ من المهامِّ الخاصَّة. مهمَّتُها الأساسيَّة كانت إرشادَ الأمَّهات في بداية فترة الرضاعة. كانت تريح الواحدةَ منهنَّ في جلستها، وتُدني من سريرها مقعدًا، ثم تُقفل الباب لتستفرد بها. لذلك ترَاني لا أعرف الكثير عمَّا كان يحدث بعد ذلك. المهمّ أنَّها كانت تطمئنهنَّ، بأنْ تؤكِّد لهنَّ أنَّ *كلّ ثدييٍّ إلَّا ويسعى إلى حلَمة*. بعض النساء ممَّن قُيِّض لي لقاؤهنَّ، أسررن إليَّ بأنَّها كانت تُحدِّثهنَّ، على وجه التخصيص، عن النور. ما زلن يحتفظن لها بذكرياتٍ دافئة، ويؤكِّدن أنَّها كانت تقول لهنَّ أشياءَ لطيفة. ولكنْ أيضًا أشياء حزينة. أخبرتني إحداهنَّ بأنَّها قد حدَّثتها عن شخصٍ يدعى باسكال.

وهي، وإن كانت قد كفَّت عن قبول الولدان، إلّا أنَّهم ظلّوا يلجأون إليها كلَّما تعسَّرت ولادةٌ، فتُخرجُ سمَّاعتَها العتيقة، تضعها

في أذنيْها، وعلى بطن المرأة تضعُ يدها، تم تجسّ قدميْها وتهمس بكلماتٍ بالكادِ تُسمع. كانت تتوجَّه بالكلام إلى الطفل، قائلةً إنَّ له أن يولَد.

وكان يطيع.

يولد.

فتقول خالة أمِّي:

ـ هذا صنعُ يدي.

وشأنَ كثيرٍ من القابلات، اختارت ألَّا تُنجبَ أطفالًا.

يعرف زملائي أنَّني أحمل اسمَها، وأنَّني أعيش في شقَّتها. هي دومهيلدور الأولى، وأنا دومهيلدور الثانية: الخالة فيفا وحفيدة أختِها دييّا. في عائلتي تقليدٌ طويلٌ ينصّ على تعميد البنات باسمِ قابلةٍ عزباء، وحين قرَّرت أختي تسمية ابنتها دومهيلدور، حرصت على التأكيد بأنَّها لا تفعل ذلك تشريفًا لي، بل تشريفًا لخالة أمِّي.

حين ماتت الخالة فيفا، أورثتني نصف شقَّتها الواقعة في الطابق الثالث، من عمارةٍ بزقاق ليوشفالاغاتا. أمَّا نصفُ الشقَّة الثاني فأوصت به للجمعيَّة الأيسلنديَّة لحماية الحيوانات.

تقول أمِّي: منطقيّ.

أمَّا رصيدها في البنك، فقد نصَّت وصيَّتها على التبرُّع به إلى مستشفى الأطفال في رِنغور، لشراء ثلاثة مصابيح لعلاج مرض اليرقان لدى الرُّضَّع، وثلاث حضَّانات للأطفال الخُدَّج.

في الشقَّة بزقاق ليوشفالاغاتا، على المنضدةِ الموضوعِ عليها

التلفازُ، صفٌّ من قناني شراب السيريس بريستول، هدايا من بعض الأمَّهات والزميلات بمناسبة تقاعدها. كانت تأمل في الحصول على واحدة، فإذا بها تحصل على عشر. وعلى عنق قنِّينةٍ منها، عُلِّقَ ملصقٌ كُتب عليه: ***شكرًا على كلّ تلك الحلوى بشراب السيريس***. من القناني العشر، ما زلت أحتفظ بتسع.

الكائن البشريّ ينمو في الظلمات

حين كنت أدرس في الثانوي، كثيرًا ما كنت أذهب عند الخالة فيفا لأُنجز واجباتي. وأحيانًا أقضي عندها الليلَ، كنت أفعل ذلك نهاية الأسبوع، ثم صرت أبيت عندها حتى وسطَه. أثناء فترة تدريبي قابلةً، كنتُ دائمةَ الذهاب عندها، في شقّتها بزقاق ليوشفالاغاتا، ثم انتهى بيَ المطافُ إلى الاستقرار عندها، استقرارًا تامًّا، خلال الشتاء الأخير من دراستي الجامعيَّة. كان يُفترض بي أن أرعاها، لأنَّها ذات يوم قصدَت إلى المقبرة تعتني بمدفن العائلة، تاركةً إبريق القهوة على النار. كنت أسوقُ بها سيَّارة اللادا السبورت العتيقة التي تخلَّت هي عن قيادتها، وأرافقها إلى المتاجر، وعند الحلّاق، وهنا وهناك. وكان يعرض لي أحيانًا أن أبيت خارج المنزل، ناسيةً إعلامَها. وكلَّما عدتُ من مغامرةٍ ليليَّةٍ، نطقَت بحكمٍ غير قابلٍ للاستئناف:

ـ مغامرةٌ لا مستقبل لها.

بالمقابل، كانت تُبدي اهتمامًا كبيرًا بدراستي، أو بالأحرى بما عمَّدَته باسم نظريَّات *الموضة الجديدة*.

سألتْني ذات يومٍ:

ـ يُقال إنَّ رائحة الشريك قد تساعدُ المرأة أثناء الطَّلق، ما معنى هذا؟

أضافت أنَّ على أيَّامها، لم يكن نادرًا أن يأتي الآباء إلى مصحّ الولادة، فائحين برائحة الخمر التي يحاولون إخفاءها بأن يمضمضوا بمرطِّب ما بعد الحلاقة أولد سبايس. كانت تشبِّه رائحة المواليد الجدد برائحة البطاطا المخزَّنة في قبو، خليط من رائحة التراب والعفن الناعم.

ذات يوم، أريتُها كرَّاسًا قديمًا يتَّخذ الأسماكَ مقياسًا لنموِّ الجنين، من أبو شوكة إلى الرنجة، فالحدوق، وصولًا إلى سمك القدّ. يُخيَّل إليَّ أنَّني ما زلت أسمع اعتراضها وهي تهزّ رأسَها: ***إنَّ الجنينَ جنينٌ، الإنسانُ ثديِّيٌ ويمشي على قدميْن***. ثم تُنهي بلازمتها المعتادة: ***أنا قابلةٌ، وأعرفُ أنَّ الإنسان، كالبطاطا، ينمو في الظلمات***.

حين كنت ما أزال في فترة التأهيل بالمصحَّة، كانت تسألني كلّ يومٍ كم طفلًا وُلد خلال مداومتي، وكانت تريد أن تعرف ما إذا كانت الولادات طبيعيَّةً، أم قيصريَّة، وهل احتاجَت تدخُّلًا طبِّيًا. كنت أعطيها تقريرًا مفصَّلًا. أقول لها إنَّ زوجيْن قد رُزقا اليومَ بتوأميْن، بعدما كانا قد رُزقا بمثلهما منذ سنةٍ، فتقول:

ـ سيكون لديهما إذن أربعةُ أطفالٍ يرتدون حفَّاظاتٍ.

كذلك كنت أحبُّ التماس النصح منها، فلا أتردَّد في سؤالها. ولم تكن أجوبتها، المراوغةُ أحيانًا، توافق الأسئلة دائمًا:

- تأمَّلي يا صغيرتي ديبّا، إنَّ المرأة هي الثدييّ الوحيد الذي لا يحتفظ بخصوبته طيلةَ حياته.

أتذكَّر أنَّها، ذات يومٍ، شبَّهت الولادةَ المتعسِّرة بعذابٍ طويلٍ، لا بدَّ لنساءٍ كثيراتٍ من أن يحاولن تجنُّبه، لو استطعن إلى تجنُّبه سبيلًا.

- في ملابساتٍ أخرى، فإنَّ الكائن البشريّ يمكنه أن يعترف بأيِّ شيءٍ ليوقف عذابًا مماثلًا.

حين كنَّا نعطي النساء غاز الضحك[1]، بعضهنَّ كنَّ يسترخين وتنفكّ عقدةُ لسانهنَّ؛ فيحكين مثلًا كم عظمًا كسرنَ: المعصم، إصبعُ كفٍّ، إصبعا قدم، وضمن أيّ ملابساتٍ حدثت تلك الكسور. يحدث كذلك أن تحدِّد النساء أين وكيف زُرعت بذرة الطفل. حتى إنَّ بعض عمليَّات الإخصاب، من غير أن تُدخل أيّ عنايةٍ إلٰهيَّةٍ في الأمر، تضفي على الحدث هالةً فوق طبيعيَّة، لأنَّه تمَّ ضمن شروطٍ، أو في لحظةٍ زمنيَّةٍ، ما كان له أن يتمّ فيها: تمكَّن حيوانٌ منويٌّ من البقاء طيلة أسبوعٍ، منتظرًا عمليَّة الإباضة، بينما كلُّ واحدٍ من الشريكيْن في طرفٍ من طرفَي البلد، فهذا يعمل في الشمال، وذاك يدرس في ريكيافيك، أو حتى أحدهما في البرّ والآخر في البحر.

(1) أكسيد النيتروز. (جميع الحواشي من وضع المترجم، ما لم ترد الإشارة إلى خلاف ذلك).

أتذكَّر امرأةً كان حريصةً على أن تصير أمًّا، مهما كلَّفها الأمر. ولكي يتمّ لها ذلك، بحثت عن رجلٍ يقبل أن تحمل طفلَه. وضعَت قناع الغاز على وجهها، فاستنشقت، ثم نزعَته، وقالت بصوتٍ رخو:

ـ لزمني من الوقت أكثر ممَّا تخيَّلت. وفي نهاية المطاف، وافق أحد زملائي، وهو مدرِّس كيمياء، على أن يعطيني بذرته. تحدَّثنا في الأمر، وزارني في بيتي ذات مساءٍ، فأعددت له قهوةً. قصد إلى المرحاض، ثم عاد منه حاملًا علبةً تحوي سائله المنويّ، فناولني إيَّاها قائلًا: هاك، فضلًا.

النساء يتحدَّثن، وأنا أهزّ رأسي.

يمكن للغاز المذكور أن يتسبَّب في حالات نسيان؛ فحين تركت تلك المرأةُ المصحَّة، سألتني:

ـ بالمناسبة، هل حدَّثتك عن هيدين؟

وما شأني أنا بملابسات زرعِ البذرة؟

الجواب، لا. إنَّما أنا أقتحِمُ المشهدَ بعد التخصيب.

على أنَّ حسابًا بسيطًا يُبيِّن أنَّ الأطفال الذين يولدون عند اشتدادِ حلكةِ الليل الشتويّ، قد زُرعت بذرتهم في الاعتدال الربيعيّ، أي زمنَ تساوي الليل والنهار طولًا. أمَّا الأطفال الذين تُزرع بذرتُهم نحو أعياد الميلادِ ورأس السنة، فيولدون بداية أكتوبر، أي زمنَ تمطُّط الظلال.

وُلد لِـ...

قبل التحاقي بمصحَّة التوليد، كانوا يُسمعون النساءَ المواخِضَ أغاني حيتانٍ لمساعدتهنَّ على الاسترخاء بين التقلُّصات. في البداية، كانت تُستعمل أشرطةُ الكاسيت، تتكفَّل القابلات بإخراجها من علبها ثم وضعها في جهاز التسجيل، ثم أتت الأقراص المدمجة لتحلَّ محلّ الأشرطة في غرف التوليد، وحين حصلتُ على الدبلوم، كانت ما تزال ثمَّة مجموعةٌ كبيرةٌ من الأقراص المدمجة لأغاني الحيتان. واليوم، يعلو الغبارُ جملةً من تلك الآلات، في مستودع المستشفى. صارت النساء، يخترن بأنفسهنَّ لائحة الموسيقى قبل وصولهنَّ إلى المصحَّة، ويستمعن إليها، بواسطة سمَّاعاتٍ، على هواتفهنَّ. منذ وقتٍ غير بعيد، قبلتُ طفلةً جميلةً، تزنُ أربعة كيلوغراماتٍ ونصف، على أنغام أغنية *Born to Die* للانا دِل رِي.

لم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظةِ أنَّ الشعراء الغنائيِّين

الأيسلنديّين أقلُّ انشغالاً من نظرائهم في باقي الأمم، لا سيّما الأنجلوسكسونيّين، بفكرةِ أنَّ الكائن البشريّ منذورٌ لمصيرٍ ما، أنَّ لولادته هدفًا، أنَّه يأتي إلى العالم ليعيش، ليهرب، ليحبّ، ليخسر، ليتعارك، ثم بخاصّةٍ، لكي يموت. حين كنت أتحمَّل ورديَّةَ الليل ثلاث ليالٍ متتالياتٍ، يجافيني النوم في الليلة الرابعة. فأجلس إلى مكتبي وأشغِّل حاسوبي. ذات مساءٍ، جمَّعت لائحة أغانٍ، فطبعتُها وألصقتها على ثلّاجتي.

Born in a Burial Gown: Cradle of Filth.

Dyin' Since the Day I Was Born: Leslie West

A Star is Born: Jay-Z.

Born for Greatness: Papa Roach.

Born Free: Matt Monro

Born Free: M.I.A.

Born Free: Kid Rock.

Born This Way: Lady Gaga

Born This Way: Thousand Foot Krutch.

Who I Was Born to Be: Susan Boyle.

I Was Born to Love You: Queen.

Born to Love You: Lanco.

Born to Be Wild: Steppenwolf.

Born to Be Wild: Sean Kingston.

Battle Born: Killers.

Born to Run: Bruce Springsteen.

Born to Live: Marianne Faithfull.

Born to Be Alive: Patrick Hernandez.

Born to Lose: The Devil Wears Prada.

Born to Lose: Sleigh Bells.

Born Slippy: Underworld.

Born Slippy: Albert Hammond Jr.

Born Again: Newsboys.

Get Born Again: Alice in Chains.

With You I'm Born Again: Billy Preston.

Born Alone: Wilco.

Born to Be a Dancer: Kaiser Chiefs.

Born and Raised: John Mayer.

Born as Ghosts: Rage Against the Machine.

Born Cross-Eyed: Grateful Dead.

Born for This: Paramore.

Born in a Casket: Cannibal Corpse.

Born in a UFO: David Bowie.

Born in Chains: Leonard Cohen.

Born in Dissonance: Meshuggah.

Born in the Echoes: Chemical Brothers.

Born of a Broken Man: Rage Against the Machine.

Born on the Bayou: Creedence Clearwater Revival.

Born Sinner: J. Cole.

Born to Be My Baby: Bon Jovi.

Born to Be Strangers: Richard Ashcroft.

Born to Be Wasted: 009 Sound System.

Born to Be Your Woman: Joey + Rory.

Born to Cry: Pulp.

Born to Quit: The Used.

Born to Sing: Van Morrison.

Born in the U.S.A.: Bruce Springsteen.

Born in East L.A.: Cheech & Chong.

Born to the Breed: Judy Collins.

Born to Try: Delta Goodrem.

Born too Late: Poni-Tails.

Born too Slow: The Crystal Method.

Born Under a Bad Sign: Albert King.

Fez - Being Born: U2.

Just Born Bad: Rich Hillen Jr.

Natural Born Bugie: Humble Pie.

The Girl Who Was Born Without a Face: Schoolyard. Heroes.

There Is a Sucker Born Ev'ry Minute: Cast of Barnum.

We Weren't Born to Follow: Bon Jovi.

أتذكَّر فجأةً أنَّني قرأت في الجريدة، منذ مدَّةٍ غير بعيدة، مقالًا يتحدَّث عن حوتٍ يجوب مياه أيسلندا، يغنِّي بموجاتٍ مختلفةٍ عن تلك التي يغنِّي بها أبناء جلدته، فأُفرِدَ. وكان عنوان المقال: *الحوت الوحيد*. بينما تغنِّي حيتان القطيع في مدى 12 ـ 25 هيرتز، يطلق هو غناءً يبلغ مداه 52 هيرتز، والنتيجةُ، لا حوتَ من الحيتان يسمع غناءَه.

ماء العالم

على ذكر الحيتان؛ ليست أغانيها الشيء الوحيد الذي اقتحَم غُرف التوليد. إنَّ اهتمام البشر بطريقة ولادة الحوتيَّات، لا سيَّما دلافينَ الحدائقِ المائيَّةِ، قد أفضى بكثيرٍ من النساء إلى الرغبة في الولادة في وسطٍ مائيّ. فكان أن استثمرت المصحَّةُ في أحواضٍ من بلاستيك. فيما مضى، كان من النادر أن تُنجب المرأة في الماء، حتى إنَّ النساء ما كان بمقدورهنَّ فعل ذلك إلَّا في بيوتهنّ. كنَّ يشترين مسابح قابلةً للنفخ، فينفخنها بأنفسهنَّ، وسط صالونات بيوتهنَّ، ثم يملأنها ماءً. وقد احتاجت القابلات، لا سيَّما منهنَّ بنات الجيل القديم، وقتًا طويلًا، ليعتدن الاعتناء بالمواخض في وسطٍ مائيٍّ، ويتعوَّدن مشاهدة رؤوس الولدان تنبثق من الماء. بعض الولادات تكون طويلة، لذا تخشى النساء أن تتسبَّب الطريقة الجديدة في تلف ما تُسمِّيه خالة أمّي **أدواتِ شغلنا**، أي أيدينا. كانت تقول:

ـ إنَّنا نبيع أجسادنا برمَّتها يا صغيرتي ديّيا. بعضهم يبيع دماغه، وآخرون يبيعون أعضاء متفرِّقةً من أجسامهم.

ناقشنا، أنا وزميلاتي، بالطول والعرض، الولادات في الوسط المائيّ، فخلصنا إلى نتيجةٍ، نبَّهتنا إليها إحدانا: ليس طبيعيًّا بالنسبة إلى طفلٍ الخروج إلى العالم على تلك الطريقة، فهو يغادر عالمًا سائلًا إلى عالمٍ سائلٍ؛ بعد أن يكون قد نما وعامَ في الكيس الأمنيوتيّ، يُبصر النّور في مياه هذا العالم.

استطردت إحداهنَّ:

ـ ثم، أليس الجسم البشريّ مكوَّنًا، في أغلبه، من ماء؟

أجابتها أخرى:

ـ بما يقارب سبعين في المائة من حجمه.

كأنَّني، لسببٍ لا أعلمه، أصغي إلى خالة أمِّي تردِّد فعلها الأثير ***خاضَ***. كانت تتساءلُ: ***يقضي الإنسان عمرَه خائضًا في الحياة، أليس كذلك***؟ كما كانت تسألني: في أيِّ لحظةٍ ينبغي أن ننتشل الأمَّ وطفلها من حوض الماء؟

اهتمامي بطريقة الولادة تلك قادني إلى البحث والتوثّق في حملِ الحوتيَّات ووضعِها. اكتشفت أنَّ ثمَّة نقاطًا عديدةً تجمع بينها وبين البشر. إنَّ الحوتيَّات، مثلها مثل البشر، ثدييَّات مشيميَّة، ومثل الإناث من البشر لا تضع أنثى الحوتيَّات أكثر من صغيرٍ واحدٍ في كلِّ بطن، وإن كان يعرض لها أن تأتيَ باثنيْن. وبخلاف المرأة، لا تكون أنثى الحوت خصبةً سوى مرَّةٍ واحدةٍ في السنة. تدوم فترة الحمل من عشرة أشهرٍ إلى سبعة عشر

شهرًا، بحسب نوعِ الحوت، وحين يأتي صغير الحوت إلى العالم، يكون كصغيرِ الإنسان معتمدًا على أمّه في الغذاء والحماية طيلة سنته الأولى. ولتُرضعَه أمُّه، ينبغي أن تستلقي على جنبها، وتقذف بحليبها في فمه، وقد تستهلك أطفال الحيتان الكبرى حتى مائتيْن وخمسين لترًا من الحليب يوميًّا. اكتشفت كذلك أنَّ أطفال الحوتيَّات تطلع من بطون أمّهاتها، أوَّل ما تطلع، بأذنابها. وتحتاج الصغار إلى المساعدة في الصعود إلى سطح الماء واستنشاق الهواء أوَّلَ مرَّة. وإلَّا غرقت ساعة ولادتها. ممَّا يفترض أن يأتي حوتٌ آخر لمساعدة الحوتِ الماخض. مثل الإنسان إذن، تلجأ الحوتيَّات إلى ***القابلات***. دُهشت حين اكتشفتُ أنَّ ذنب كلّ حوتٍ يختلف عن أذنابِ بني جلدته، إنَّه كبصمة الأصبع بالنسبة للإنسان. كذلك لم أفكِّر من قبلُ في أنَّ أذناب الحيتان أفقيَّةٌ وليست عموديَّةً على شاكلة أذنابِ الأسماك. حين ذكرتُ لأختي هذا التفصيل، أجابتني:

ـ تزدادين، يومًا بعد يومٍ، شبهًا بالخالة فيفا.

الشيء نفسُه قالت أُمِّي:

ـ أخذتِ عنها الكثير.

ثم صاحت بي من أقصى الحقل: ثم إنَّك تحملين اسمَها.

مؤخَّرًا، وقد أعددتُ حلوى بافلوفا، متَّبِعةً وصفةَ خالة أمِّي المكتوبةَ، صرَّحت لي أمِّي: منها أخذتِ اسمَ التعميد.

أن تأكل، وتشرب، وتحبّ، وتتواصل، وتُشارك، وتكتشف، وتكرِّس نفسك للآخرين

والداي كانا، وما يزالان إلى اليوم، يديران، مع صهرهِما، زوجِ أختي، شركةً صغيرةً لدفن الموتى. وكما تقول أمّي، فإنَّ الأعمال *مزدهرةٌ* ما دام لا بدَّ للجميع من الموت يومًا ما. جدِّي لأبي هو من أسَّس هذه الشركة، وكان يصنع التوابيت بيده، توابيت حسنة متينة، من خشبٍ جيِّد. لكنَّ ذلك العصر ولَّى. صارت التوابيت اليوم، كما يبيِّن والدي متحسِّرًا، ***تُصنع لاستخدام واحدٍ، وتُستورد من الخارج***. أمِّي إذن محقَّةٌ حين تشير إلى أنَّها تقاليد عريقةٌ راسخةٌ في عائلتي، تقاليدُ الاعتناء بالكائن البشريّ منذ مجيئه إلى هذا العالم، وحتى بلوغه غايتَه. يتكفَّل فرع العائلة الذي تنحدر منه أمِّي بالإنسان حين يبصر النور، ويتسلَّمُ المشعلَ الفرعُ المنحدرُ من أبي، حين ينطفئُ النورُ. أمِّي هي الاستثناء، لذلك تراها كلَّما عانت لحظاتٍ عصيبة، لا تتردَّد في القول إنَّها

تأسف لأنَّها لم تصبح قابلةً على ديدَن جدَّاتِها. قضينا، أنا وأختي، طفولتَنا مع أمٍّ تراجعُ، على مائدة الطعامِ، طلبات موادِّ زينةِ الميتِ، وتنظِّمُ، وهي تطبُخ لنا، عمليَّات وضع الميِّت في التابوت. تغطِّس شرائح سمك الحدوق في فتات الخبز قائلةً: إنَّ الحياة عود ثقابٍ لا يتوهَّجُ إلَّا برهةً. أو: الإنسان يراعةٌ. وإن واجهت دفنًا صعبًا، أي دفنَ ميْتٍ فُجاءةٍ، أو طفلٍ، يحدث أن تغلق على نفسها باب غرفتها، وتتمدَّد على السرير رافضةً الخروج. فيضطرّ والدنا إذَّاك إلى أن يقصد المطبخَ، فيرتدي المئزر، ويعدّ لنا مقانق. إن شممنا، ساعة عودتنا من المدرسة، رائحةَ مقانقَ مطبوخةٍ تفوح في أجواء منزلنا، بزقاق بولستدارثيد، فإنَّنا نعرف أنَّ طفلًا مات. نسمع أبانا يتحدَّث همسًا إلى زوجته في الغرفة، محاولًا تعقيلها. يحمل إليها طعامَها قائلًا: إن شئتِ، بِعنا الشركة. مرَّةً، قضت في حجرها بالغرفة ثلاثة أيَّامٍ، ثم لمَّا فتحت البابَ أخيرًا، خرجت علينا ضاحكةً مستبشرة، فعانقتنا، أنا وأختي، عناقًا طويلًا، لأنَّ الحياةَ لا تُختزل في مجرَّد نبضٍ للقلب، قالت: أريد أن أشعر بنفسي حيَّةً، أن آكل، وأشرب، وأنام، وأُحبَّ، وأتواصل، وأُشاركَ، وأكتشف، وأكرِّس نفسي للآخرين.

كنتُ بطول شبرٍ حين استقللت الباص أوَّل مرَّةٍ، من حيّ هيدار في اتِّجاه نهج رينغبروت. كانت لي غرفتي الخاصّة بزقاق ليوشفالاغاتا. لطالما أسمت خالةُ أمِّي التي تعيش بمفردها، تلك الغرفةَ، غرفةَ الصغار. عندها كنت أتناول حلوى في كلِّ الوجبات، واستحوذ على عنايتها برمَّتها، بخلاف الوضع في بيت

والديَّ، حيث أنام أعلى سريرٍ مزوجٍ، تحتلُّ أختي جزأه السفليّ.

في كلّ مناسبةٍ تردِّد الخالة فيفا:

ـ أنا وأنت نحمل الاسم نفسَه.

تجلس المرأةُ وسميَّتُها في المطبخ ساعاتٍ طوالًا، تلعبان بالورق لعبة الشايب. كانت خزائن مطبخها مكتظَّةً بعلب المصبّرات التي تُسمِّيها مجموعتَها. تسألني أن أختار بينها؛ أشير إلى علبةٍ منها، فتتناولها وتُخرج منها كرات سمك أورا، وتحضِّر صلصة أورور؛ ثم أُشير إلى أخرى، فتُخرج منها ثمار الكمثري المحفوظة في شرابٍ، وتحضِّر القشدة المخفوقة.

إذ أسترجعُ الذكريات، أراني كنتُ أفرّ من جوٍّ الموت المحتوم والوشيك الذي كان يحوم فوق زقاق بولستدارثيد: فإن كان الطفل الذي أتى عليه الدوْر ليموتَ في المرَّة القابلة أنا أو أختي، كم يومًا ستلزم أمِّي غرفتها، ممدَّدةً تحت الملاءة؟

أنا وأختي اشتغلنا لحساب الشركة العائليَّة طيلة أصيافِ سنوات دراستنا الثانويَّة. كنت مسؤولةً عن تنظيف عربة نقل الأموات، وما إن حصلتُ على رخصة القيادة حتى أوكِلتْ إليَّ مهمَّةُ تزويدها بالوقود. ذات مرَّةٍ، نسيت تزويد السيَّارة بالبنزين، فاضطرّ الموكب الجنائزيّ، برمَّته، إلى التوقُّف في محطَّة وقودٍ على طريقه إلى المقبرة. أحيانًا، حين كنَّا نذهب لحمل جثمانٍ، كنت أقود الشاحنة السوداء الصغيرة، أنتظر خلف المقود، دون أن أوقف المحرِّك. أتذكَّر كذلك أنَّني، ذات يوم، اضطررت إلى أن أحلّ محلّ أمِّي، وأستفتح الموكب الجنائزيّ في الكنيسة، مرتديةً

فستانَها الأسود الذي يفوقني حجمًا بثلاثة مقاسات، فكنتُ أعوم فيه. في الخطاب الذي تلَته بمناسبة حصولي على البكالوريا، قالت: إنَّنا ننسى الناسَ. بعد ثلاثة أجيالٍ لا أحدَ يُذكَر. سرعان ما تنطفئ ذكرانا، فلا يحفظُها سوى شخصٍ واحدٍ. ثم يصير اسمُنا مبهمًا، يذكِّرُ أحدهم بذكرى غامضة. ثم لا يدري أحدٌ أنَّنا عشنا.

في ابتداء الرحلة التي تقود من الظلمات إلى النور

انتهى يومُ عملي؛ أضع في حقيبتي علبة الشوكولاتة التي أهدانيها الزوجان المهندسان. غطاؤها مزيَّنٌ بجبلٍ مخروطيٍّ يتماوج بأضواء الشفق القطبيّ. الحقُّ أنَّ السماء برمَّتها خيالٌ من تلوُّناتٍ خضراء وورديَّةٍ وبنفسجيَّة. أدسّ بطاقتي في آلة ختم ساعات العمل، في آنٍ واحدٍ وڤاكا، صغرى القابلات العاملات في المصحَّة، وقد أتت تبدأ مداومتها الليليَّة. التقيتُ ڤاكا حين كانت ما تزال تدرس. كنت أنا مرشدتَها، ومنذ أن حصَّلت شهادتَها، ما انفكّت تزورني في شقّتي بزقاق ليوشفالاغاتا، للفضفضة أو طلبًا للنصح. ليس نادرًا أن تبكي الطالبات القابلات أثناء عمليَّات التوليد، حتى وإنْ مرَّت الأمور كما ينبغي. يبكين مع الأمّ، يبكين مع الأب، ويحتجن أحيانًا العزاء.

تقول ماخضٌ متأوِّهةً، إنَّها لن تستطيع. فتردِّد الطالبات القابلاتُ اللازمةَ نفسَها.

فأُجيبهنَّ جميعًا: بلى، تستطيعين. يسألنني:

ـ وإن غاب الشريكُ، بحثًا عمَّا يسدّ به رمقَه، في اللحظة نفسها التي أطلّ فيها الوليد، هل أتحمَّل مسؤوليَّة ذلك؟ وإن نامَ أثناء الولادة، هل أوقظه؟ غالبًا ما تخاف القابلات اللواتي حصلن للتوّ على الدبلوم، من الانفراد، أوَّل مرَّةٍ، بامرأةٍ ماخض. يخشين ارتكاب أخطاء إهمال.

ڤاكا عضوٌ في فرقة الإنقاذ لاندسبيورغ. يحدث أن نتبادل، أنا وهي، مواعيد دوامنا، حين يكون على فرقة الإنقاذ القيام بتدخُّلٍ ما، وغالبًا ما يكون هذا التدخُّل للبحث عن سيَّاحٍ تائهين، أو أشخاصٍ علقت سيَّارتهم في الثلج، أو فشلوا في قراءة التحذيرات المكتوبة بالأيسلندية: أرادوا أن يلتقطوا صورةً، فانزاحوا عن طريقهم، ثم تاهوا، لأنَّهم لم يتخيَّلوا أنَّ الطقس أو اتِّجاه الريح قد يتغيَّر بهذه السرعة، وأن يتحوَّل طقس الصباح المشمس، في الظهيرة، إلى عاصفةٍ ثلجيَّةٍ قاتلة، انقلابٌ كلِّيٌّ في رمش العيْن. أو ربَّما باغتَهم الليلُ. هذا الشتاءَ لم تحتج الفرقة التدخُّل لإنقاذ سيَّاحٍ إلَّا لمامًا، بالمقابل تدخَّلت مرَّاتٍ عديدةً لإنقاذ حوتيَّاتٍ ألقى بها الموج إلى الساحل، فساعدها أفراد الفرقة للعودة إلى عُرض البحر. حين أرجع التفكير أرى أنَّ نشراتنا لطالما ذكرت أخبارَ حيتانٍ تائهةٍ أو هياكل عظميَّةٍ أُلقي بها على شواطئنا. هذا الصيف، كثيرًا ما استُدعيَت الفرقُ لإنقاذ حيتانٍ من فصيلة الحوت الطيَّار. لم نستطع تفسير سلوك الثدييَّات البحريَّة. أخبرتني ڤاكا أنَّها وأصدقاءَها ظلُّوا يرشُّون بالماء أجسادها البرَّاقة، وهم يسابقون الزمن لإعادتها إلى اللُّجَّة. وفي

اليوم التالي، أعادت الحيتان الكرَّة، وألقت بنفسها مجدَّدًا على الشاطئ.

قالت لي:

ـ المشكل أنَّ الحيتان لم تكن تريد العودة إلى أعالي البحر.

منذ مدَّةٍ غير بعيدة، قرأت مقالًا يذكر عددًا من العناصر الدالَّة على تغيُّرٍ في سلوك الحوتيَّات في المياه القطبيَّة. ومن بين التغيُّرات العديدة التي طالت سلوكها، توقُّفها عن الهجرة جنوبًا، هجرة كانت، فيما مضى، تعبر فيها نصفَ كوكبنا شتاءً، وهذا التوقُّف هو ما يفسِّر العدد غير المألوف للحيوانات التي ينتهي بها المطاف على سواحلنا. يشير المقال إلى أنَّ الظاهرة في البداية كانت تخصّ الإناث من الحيتان اللاتي وضعن لتوِّهنَّ، واللاتي يفضِّلن البقاء مع صغارهنَّ هنا، لكنْ مؤخَّرًا، بتنا نسمع كذلك حيتانًا ذكورًا تُردِّد أغاني الحبّ التي لا تردِّدها بالعادة إلَّا في فترة التكاثر، حين تكون خصبةً وباحثةً عن شريك.

حين تصفو السماء بغتةً، ترافق ڤاكا السيَّاح القادمين لتأمُّل أضواء الشفق القطبيّ، وبذلك تستطيع أن تنمِّي راتبها. وحين لا يكون لديها ما تفعله في المصحَّة، فإنَّها تقتل الوقت بتأمُّل صور كلاب الإنقاذ على الإنترنت. كما تعمل على جمع وإنشاء دليلٍ للوشوم، المذهلة أحيانًا، التي تكشفها في جلود نزيلات المصحَّة: قرنبيط، باركود موز، كنيسة القدِّيس بطرس في روما، مزرعة أيسلنديَّة يعلوها سقفٌ من خُثّ.

أنا في إجازةٍ هذا الأسبوع، لكنَّني سأشتغل في أعياد

الميلاد، على معتادي في السنوات الماضية. تحرص المصحَّة على أن تمنح إجازة الأعياد للقابلات ذوات الأطفال. عليَّ أن أعترف بأنَّني في الواقع، أتطوَّع للعمل في تلك الفترة. تعينني تلك المداومات الإضافيَّة في دفع أقساط قرض الشقَّة. زِدْ على ذلك أنَّ جمعيَّة مالكي العمارة قرَّرت تجديد السقف وتبديل موكيت السلالم، وبالتالي لا مناصّ من زيادةٍ مهولةٍ في واجب الملكيَّة المشتركة.

أعتمر طاقيَّتي وأسحب سحَّاب معطف النورك حتى أعلاه. هذا الصباح، انهالت حبَّات البَرَد بالطَّرْق على سقف السيَّارةِ كسربٍ من البازلَّاء؛ وهذا المساء، يلسع صدري مطرٌ باردٌ اختلط به الثلج. أنا عاجزةٌ عن تحديد منبع الرِّيح. بينما ألبس قفَّازيَّ، تتوقَّف سيَّارةٌ عند مدخل المصحَّة. ينزل السائق، ويدور حول السيَّارة ليفتح الباب للمرأة الجالسة بجانبه. تنزل، يسندها، قلِقَ السحنة، هي تتلوَّى من الألم، نظرتُها شاردةٌ، أعرف هذا التعبير، إنَّه الأذانُ بالرحلة التي تقود من الظلمات إلى النور. يسند الرجل المرأة من ذراعها، ويقطعان على مهلٍ الأمتارَ القليلةَ التي تفصلهما عن الاستقبال. إن كانت محظوظةً، سيولد الطفل بعد سويعاتٍ من المخاض.

يتركها برهةً ليركن السيَّارة، فتبقى وحيدةً في بهو المدخل.

أبتسمُ للمرأة.

تقول:

ـ أنزَلتُ للتوِّ الماء.

متّكئةً على الحائط جنبَ المصعد، تنظرُ إلى الأرض خافضةً عينيْها. أظنّها على وشك الإنجاب.

أنصحها بأن تتنفَّس عميقًا.

تُجيبني:

ـ لقد رأت أمِّي كوابيسَ في الليلة الماضية.

يبرز الرجل حاملًا حقيبةً وسريرَ رُضَّعٍ، يبدو تائهًا.

يقول:

ـ لا أدري كم سيستغرق الأمر. لقد وضعت في آلة الموقف ما يكفي ستّ ساعاتٍ، أتمنَّى أن تكون كافية.

السماءُ وضعت قدميْها على الأرض، وتسري في عروق أختي

يرنّ هاتفي في جيْب معطف النورك. أخلع قفّازًا لأُجيب على الاتِّصال. إنّها أختي، عالمة الأرصاد.

تسألني بدايةً ما أفعل.

ـ أنهيت دوامي، وأنا عائدةٌ إلى البيت.

عادةً بعد سؤالها الأوّل، تسألني أين أنا.

إحدى خصائصها الأخرى المميَّزة، أن تقفل الخطّ بلا مقدِّمات، ثم تعاود الاتِّصال بعد عشر دقائق لأنّها تذكَّرت تفصيلًا أغفلَته، ثم تقفل الخطّ مرّةً أخرى. محادثاتنا على الهاتف تدوم بين نصف دقيقةٍ ونصف ساعة. في الحالة الثانية، يحدث أن أشغِّل مكبِّر الصوت. ذات يومٍ سألتني ما إذا كنت أستحمّ.

وهي ذي تسألني أين أنا.

ـ أنا نازلةٌ زقاق بارونستيغور.

كان بإمكاني أن أقول لها إنّني قد بلغت قسم الأمراض، حيث يتمّ تشريح الأجنّة والأطفال الذين يولدون ميّتين. بحسب المعايير المعتمدة، فإنَّ طفلًا يولد بعد فترة حملٍ لا تقلّ عن اثنيْن وعشرين شهرًا، ويكون وزنه لا يقلّ عن خمسمائة غرام، ولا يُبدي أيّ إشارة حياة، يعتبرُ طفلًا وُلد ميّتًا. أمّا في الحالات الأخرى، فيسجَّل في خانةِ الأجنّة المُجهضة.

ـ كيف كان يومك؟

ـ سبع ولادات.

سألتني جنسَ الأطفال.

ـ أربعة صبيانٍ وثلاث صبايا.

أضفت أنَّ بينهم زوجَي توائم.

لصفتها متخصِّصةً في حركة الكتل الهوائيَّة في طبقة الستراتوسفير، فإنَّها تحذِّرني منذ أسابيعَ من سلسلةٍ من الاضطرابات التي ستتعرَّض لها الجزيرة. تقول إنَّ الضغط المنخفض يعبرُ المحيط، وسيخلِّف أضرارًا بليغة. أو: هي ذي أخرى رائعة، لن تتأخَّر في النزول على رؤوسنا، وستكون أقوى من تلك التي ضربتنا الأسبوع الماضي. أو حتى: بالعادة لا نشهد منخفضاتٍ بهذه القوَّة في ديسمبر، ولا توالي منخفضاتٍ بهذه الوتيرة. ***غير معتاد، غير طبيعيّ، غير متوقَّع***، تلكم هي النعوت التي تستعين بها في وصف هذا الطقس الذي لم نشهد له مثيلًا. وأحيانًا، ينضاف إليها النعتُ ***لا قبل لنا به***. في الوقت الراهن،

تراها مهمومةً بالطقس المتوقَّع الأسبوعَ القابلَ. مساء يوم 24 ديسمبر أو، على أقصى تقدير، ليلة أعياد الميلاد.

ـ منذ سبعين سنةً لم تتنبَّأ الأرصاد بطقس أسوأ من هذا!

بيننا فارقُ سنة. ويعرض للناس أن يخلطوا بيننا. يقول بعضهم إنَّهم قد شاهدوني أقدِّم نشرة الأخبار في التلفزيون، ويسألونني تفسيرَ لون الغيوم الأسمر، هل هو نتيجةُ تلوُّث الجوِّ بالرماد البركانيّ الآتي من سهول الرمال الممتدَّة الشاسعة شرقَ البلاد، أم هو من فعل التلوُّث في نهج ميكالابراوت أو من تأثير النيران التي تلتهم الغابات في البلدان الأخرى. يخيَّلُ لي أنَّني أسمع صوت خالة أمِّي: ***أرأيتِ يا صغيرتي دييّا، كلّنا نعيش تحت سماءٍ واحدة.***

ذات يومٍ، وأنا أنتظر دوري في المصرف، سُئلت عن رأيي في الطقس، هل أعتقد أنَّ الشتاء موشكٌ على الانقضاء وإخلاء مكانه للربيع. أجبت: أنتم تخلطون بيني وبين أختي، عالمة الأرصاد. وفي مرَّةٍ أخرى، في سوبر ماركت، شكَرت أمُّ طفلٍ جالسٍ في عربة تسوُّقٍ، أختي لأنَّها ساعدتها في أن تضع طفلاً يزن أربعة كيلوغرامات. أجابتها أختي: أنت تخلطين بيني وبين أختي. وقالت لي: عمومًا أنا أشبهك أكثر ممَّا أشبه نفسي، والشيء نفسُه ينطبق عليكِ.

أشدّ إيشاربي وأسلك زقاق سوليارغاتا. حين لا تكون الريح قويَّةً، أتَّخذ ممرّ سكوتروسفيغور لكي أعبر الجسر فوق بحيرة تيورنين، وألّا أسير طولَ مسالك الحصى التي تخترق

هيومسكاولاغردينين، منتزهَ كشك الموسيقى، كي أغنم الملجأ الذي تمنحهُ الأشجارُ. وإن كانت البحيرة متجمِّدةً، يحدث لي أن أعبرها متزحلقةً على سطحها.

الاتِّصال سيِّء، الريح تمنعني من سماع صوت أختي. ستقفل الخطَّ، وتعاود الاتِّصال لاحقًا.

آخر قطعةٍ من مساري إلى البيت، تمرُّ بالمقبرة القديمة، حيث يوجد مدفنُ العائلة الذي ترقد فيه قابلتان، جدَّةُ أمِّي وخالتُها، إلى جانب جدَّتي وجدِّي، وطفلٌ صغيرٌ وُلد ميِّتًا، ودُفن منذ ستَّة عشر عامًا. اليوم صار الوالدان يختاران أسماءً لأطفالهما الذين يولدون ميِّتين، بل وحتى لأجنَّتهما المجهضة. اكتشفتُ أنَّ أربعَ قابلاتٍ أخرياتٍ مدفوناتٌ في هذه المقبرة التي تضمّ كذلك عددًا من لحود الأطفال صغار السنّ. كثيرٌ منهم وُلدوا وماتوا في اليوم نفسه. من شواهد القبور، نستطيع أن نخمِّن أيّ النساء مُتْنَ أثناء الوضع. ففي تلك الحال، يكون تاريخ الوفاة المكتوب على شاهدة الأمّ هو نفسه المكتوب على شاهدة الطفل.

الإضاءة الوحيدة تنبعث من الصلبان المنيرة التي تشتغل بالبطَّاريَّات، والتي نصبتها الأُسر احتفالًا بأعياد الميلاد. كنت ما أزال في المقبرة حين عاوَدَت أختي الاتِّصال. الأكاليل تلتمع في نوافذ العمارات المحيطة.

مجدَّدًا، سألتني أين أنا.

أجبتها: في المقبرة. تحديدًا، بجانب شجرة الغبيراء التي زرعتها خالةُ أمّنا.

ـ أتريدين أن ندفنك في مدفن العائلة؟

ـ لم أقرِّر بعد.

تسألني هل ما تزال الخيمةُ هناك.

الأسبوع الماضي، عثرت على خيمة تخييم لصق قبرٍ في ركنٍ من أركان المقبرة. ظلَّت الخيمة هناك بضعةً أيَّام. ظننتُها في البداية خيمةَ سائحٍ أجنبيّ، فلمَّا دقَّقت النظرَ، انتبهتُ إلى أنَّها خيمةٌ من تلك التي تستعمل في مواقع البناء، خيمةٌ بلا أرضيَّةٍ، كتلك التي يستعملها عمَّال ترميم الطرق. ثم اكتشفت ـ وأنا أقرأ الجريدة ـ أنَّهم يجرون فحص دي أن إي لإثبات أبوَّة.

ـ يندر أن نشهد أمثال هذه المشاكل، عقب الولادة مباشرةً، لكنَّني أذكر حالتيْن؛ امرأتان أتاهما أكثرُ من رجلٍ يرغب في رؤية الطفل.

أقول لأختي إنَّ الخيمة اختفت.

تسألني هل ما تزال الورقةُ متشبِّثَةً بشجرتها.

وكان قد استرعى انتباهي، منتصفَ ديسمبر، وجود ورقةٍ وحيدةٍ صفراء على شجرة الغبيراء، فحدَّثتُ أختي عنها. وكلّ يوم، في طريقي إلى العمل، كنت أتحقَّق من وجودها، بالكاد كانت تتشبَّث بالشجرة، وتظلُّ الريح تتلاعب بها طيلة النهار. ترى أختي أنَّ من العجيب أن تقاوم ورقةٌ وحيدةٌ رياحًا عاتيةً. طلبت منِّي أن ألتقط لها صورةً بهاتفي، وأرسلها إليها. قلت لها إنَّها قد اختفت، لا بدَّ أنَّ الرّيح قد طارت بها في الليلة الماضية.

فلورا أيسلنديكا

أُولج المفتاحَ في القفل، وأفتح الباب، فألتمس زرّ المقبس جنبَ المشجب. تشتغل الثريَّا المهذَّبة التي ورثُتها عن الخالة فيفا، ثم تبدأ اللمبة ترمش، إنَّها تؤزّ كأنَّ ذبابةً حطَّت على الزجاج الحارق، فاحترقت أجنحتُها الشفَّافة، ثم انطفأ النور. منذ مدَّةٍ وأنا أعاني مشاكلَ في الكهرباء، مشاكلَ في المقابس كما في اللمبات، وهذه ثاني لمبةٍ تحترق في البهو، خلال أسبوعٍ واحدٍ. نزعت معطف النورك، وعلَّقته على المشجب، ثم التمست بأطراف أصابعي المقبس على ورق الفينيل البرتقاليّ المرقَّش الذي يغطِّي جدران الصالون.

معظم الأثاث يلائم نصفَ الشقَّة التي ورثتُها، لا بل أستطيع أن أقول صدقًا إنَّني أخذت كذلك أثاث جدَّتي، ما دام معظمه قد خُزِّن، بعد وفاتها، في المنزل بزقاق ليوشفالاغاتا. وأيّ راحةٍ شعرت بها أمِّي، إذ جنَّبتُها عناء فرز تركَتَيْن من الأثاث! ذلكم هو

سبب الطابع المتنافر الذي يميِّز أثاث شقَّتي. فأنا، مثلًا، أمتلك أريكتيْن متنافرتيْن، إحداهما من مخملٍ عنَّابيّ، والثانية مغطَّاةٌ بنسيجٍ من صوفٍ رماديٍّ مرقَّش.

قالت أختي ملاحِظةً:

ـ كأنَّها مصطبةٌ من ضبابٍ كثيف.

منذ مدَّةٍ طويلةٍ وأنا أنوي تجديد هذه الشقَّة، وكثيرًا ما اقترحَت عليَّ أختي المساعدة في فرز هذا الخليط كلّه.

قالت:

ـ حين يزورك المرء، يحسب نفسه في متجرٍ من متاجر الصليب الأحمر. أو في مخزن بائع أنتيكا.

وأضافت أنَّ بوسع زوجها مساعدتي في نقل كلّ تلك الأشياء.

قبل أن أنتقل إلى زقاق ليوشفالاغاتا، ظللت مدَّةً أنتقل بين شقق إيجارٍ في أماكن متفرِّقةٍ من المدينة. وقد أعانني زوج أختي، من قبل، في نقل سريرٍ وكراتين كتبٍ، حملها في عربة نقل الموتى السوداء البرَّاقة التي تحمل شعار شركة متعهِّدي الدفن.

أنام في السرير المصنوع من خشب الساج، السرير الذي ورثته عن خالة أمِّي، سريرٌ يسع شخصًا ونصفَ شخصٍ، سريرٌ زوجيٌّ صغير، كذلك الغرفة مؤثَّثةٌ بالمكتب الذي لطالما رأيتُها تجلس إليه، بعد تقاعدها، متصفِّحةً شتَّى الوثائق، وكذا طاولتَيْ غرفة نومٍ، وكومودينو من خشب الساج. على الأرض، في ركنٍ من أركان الغرفة، يتربَّع الحاسوب العتيق الذي كنت قد شجَّعت

الخالة فيفا على شرائه، وحاولت تعليمها كيفيَّة استعماله. يشبه تلفاز CRT صغيرًا. في الصالون، رفوفٌ من خشب الساج، وطاولة تقديمٍ عليها جهاز تلفازٍ عتيق، وكذلك مائدة الطعام من خشب الساج.

تقول أختي:

ـ ساجٌ وزخارف، ساجٌ وزخارف.

على الأرضيَّة بساطٌ تزيِّنُه ورودٌ مذهَّبة، وعلى رفٍّ فوق التلفاز كلبان من خزف، بينهما صورةٌ تجمعني أنا والخالة فيفا، تؤرِّخ لليوم الذي حصلتُ فيه على دبلوم قابلة. أعانقها، وهي تضحك ملء فمها، وأفوقُها طولًا بمقدار رأسٍ. وقد ارتدت بالمناسبة فستانها الأسود المطرَّز بالفضَّة، وعقد اللؤلؤ، وقرطَيْها. أمَّا أنا، فأرتدي بدلة بنطلونٍ زرقاء.

نوافذ الصالون والمطبخ تطلُّ على المقبرة، ونوافذ الغرفة على الساحة المبلَّطة بالأسمنت، حيث صُفَّت حاوياتُ القمامة. وهناك أيضًا شجرة قيقبٍ بجذعيْن.

يحوي درج الكومودينو السفليُّ أدوات الخياطة التي كانت تستعملها خالة أمِّي، علبة أزرار، أبر خياطة التريكو، وثلاث وسائد للدبابيس. العلبة المعدنيَّة التي تحوي الأزرار، كانت فيما مضى تحوي شوكولاتةً سويسريَّة، وعلى غطائها رسمُ جبلٍ تغطِّي سفوحَه أشجار تنُّوب. الثلج يغطِّي كلّ شيء ـ والقمر بدرٌ كامل، المعطف الأبيض يتلألأ. مجوهرات الخالة موضوعةٌ في دُرْجٍ آخر، وأحمر شفاهها، وبودرتُها، وعطرُها في دولاب الحمَّام.

وضعتُ ملابسي في قسمٍ من دولاب المدخلِ، وفي القسم الثاني فساتينها التي كانت ترتديها أيّام الراحة، معلّقة في شمّاعات. ما زلت إلى اليوم أستعمل مناشفها، وغلّايتها الكهربائيّة، وكذلك احتفظت بالأستار التي صنعتها بنفسها وعلّقتها في نوافذها سنوات 70. عمرُ الثلّاجة أربعين عامًا، لكنّها ما تزال شغّالة. حين انتقلت للسكنى هنا، كانت في خزانة المطبخ علبةٌ مبدوءةٌ من الكعك الجافّ المحشوّ بالقشدة، وعلبة تمر، وحساء قرنبيط، ثلاث علب مصبّرات فواكه ماركة دِل مونتِ، وخوخٌ وكمثري.

تشهد الشقّة، شهادةً دامغةً، على موهبة الخالة في شغل الخيّاطة. كلّ مقعدٍ، وكلّ كرسيٍّ، تغطّيه وسائد مشغولة ـ أحصتها أختي، فكان عددها سبع عشرة ـ فضلًا عن مناديل المائدة المصنوعة بالكروشيه، والمفارش المطرّزة. على الوسائد، طرّزت عجائب الطبيعة الأيسلنديّة، كشلّال جولفوس وشلّال دتيفوس، وفالق ألماناكيا، ومنابع غيسير، وجبل كييلير، أو حتى نماذج من النبيت المحلّيّ، *الفلورا أيسلنديكا*، غرنوقيّة الغابات، والهندباء، والدرياس الثُماني البتلات. لكنْ أوّل ما يجذب النظرَ، حين الدخول إلى المنزل، هو اللوحة القماشيّة الكبيرة المعلّقة إلى الحائط، فوق أريكة؛ لوحةٌ تمثّل العذراءَ تُرضعُ يسوعَ طفلًا. مريم ترتدي معطفًا أحمر ذا ياقةٍ من فروٍ أزرق، وتتأمّل الرضيع جالسًا في حجرها على وسادةٍ خضراء خضرَة القناني. وباستثناء النسيج الذي يخطّي فخذيْه، فإنَّ الصبيّ عارٍ، يرفع إلى صدر أمّه رأسَه، وإلى فمه أصبعًا. ومركز الصورة هو ثدي الأمّ والطريقة التي تمسكُه بها لتناولَه الصبيَّ. ومن هيأة الصبيّ، قد نقول إنّه في

شهره الخامس. وقد بذلت الخالة فيفا جهدًا بيِّنًا في إنجاز بعض التفاصيل، وفي مقدِّمتها الصدرُ، بينما يمكن القول إنَّها لم تنفق كبيرَ عنايةٍ بأجزاءٍ أخرى، كالملكيْن عند زاويتَي القسم العلْويّ من الإطار، إذ اكتفت برسم الجزء العلويّ من جسميْهما، مستعينةً بغرزةٍ واسعةٍ وألوانٍ متقشِّفة. بالمقابل، استعملت في رسم الثدي تشكيلةً واسعةً من الغرز، وألوانًا من الخيوط. ومقارنةً ببقيَّة المواضع في الرسم المنبسطة، يبرز الثدي حتى لَيَبدو ثلاثيَّ الأبعاد، وإن لن أبلغ حدَّ القول، كما تقول أختي، إنَّه متجسِّد. وواضحٌ أنَّ الحلمة هي أكثر ما اشتغلت عليه الخالة. توسَّلَت بلطائف من اللون الورديّ، خائطةً الخيوط بعضها فوق بعض بدقَّةٍ حتى تبدو الحلمة بارزةً كمقبض بابٍ يلمع في الظلام. أو، بتعبير أختي، هذا الثديُ يتربَّع على عرش الصالون.

إن ضربنا صفحًا عن اللوحة القماشيَّة، وورق الفينيل البرتقاليّ الذي يغطِّي أحد الجدران، فإنَّ شقَّتي يهيمنُ عليها طابعٌ لونيٌّ واحدٌ، مجموعةٌ من اللطائف السمراء ـ من الأثاث إلى المرافق إلى الأستار: تشكيلةٌ من الألوان بين أمغر وبيج وأسمر غامق. الحقُّ أنِّي، منذ وفاة الخالة فيفا، أي منذ أربع سنواتٍ، لم أغيِّر شيئًا يُذكر. صدقًا، لم أُغيِّر شيئًا البتَّة.

حين أنظر في الغرفة، أرى أنَّها أشبه شيءٍ بمكتبٍ، فحتى اليوم ما تزال أوراقُها متناثرةً في كلِّ مكانٍ. على أنَّ ذلك لم يمنعني من استقبال زوّارِ ليلٍ، ممَّن لا يأتون عامَّةً لتأمُّل مسكني.

قلبان

أمس، أخرجت قلبَيْ خروفٍ من المجمَّد، ووضعتهما، ليفكّا، على صحنٍ في الثلّاجة. لا أستهلك الكثير من اللحم، لكنْ هذا طبقٌ غير مكلف، كانت خالة أمِّي تعدّه لنا بانتظام. حين فتحت الثلّاجة رسمَ النور مثلّثًا على أرضيَّة المطبخ.

وبينما أغسل القلبيْن تحت سيلٍ من الماء البارد، سمعت باب العمارة يُغلَق. ثمَّة ضجيجٌ في أسفل السلّم. أحدهم يرتقي الدرجات، ويبدو أنَّه قد توقَّف عند صعيد شقَّتي. دقيقة بعد ذلك، يدٌ تعالجُ مقبض بابي. لا شكّ في الأمر، ثمَّة من يحاول إدخال مفتاحٍ في القفل. أغلقت الصنبور، ونشَّفت يديّ. وبينما أخرج من المطبخ، سمعت طرْقًا على الباب.

على العتبة، رجلٌ شاحبٌ متعب، وشاحُه معقودٌ على رقبته، وحقيبته عند قدمه، ومفتاحٌ في يده. ألقى التحيَّةَ أوَّلًا، ثم اعتذر

عن إزعاجي. يتحدَّث بالإنجليزيّة: يبحث عن شقَّةٍ حجزها لأعياد الميلاد.

أحيانًا، يؤجِّرُ الفتى الذي يسكنُ تحت العلِّيَّة مسكنَه لسيَّاح، وإن لم يفعل ذلك مؤخَّرًا إلَّا نادرًا. هو عازف قيثارٍ في فريقٍ موسيقيّ. وقد توصَّلنا، أنا وجارتي في الشقَّة السفلى، إلى اتِّفاقٍ معه، تعهَّد بموجبه على ألَّا يربط قيثارته إلى مفخِّم الصوتِ، حين يتمرَّن في المنزل. التقيت به منذ أيَّامٍ، كان يخطِّط لقضاء أعياد الميلاد عند أمّه، في هليساندور، لكنَّه لم يذكر لي شيئًا عن كراء شقَّته.

بيَّنت لزائري أنَّه أخطأ الطابق. نظر إلى اسمي على جرس الباب. هو نفسه اسم خالة أمِّي، اكتفيت بأن أضفت إليه اسمي.

قلت له:

ـ أنت في الطابق الثالث. أمَّا الشقَّة التي تقصدُها فتقع تحت العلِّيَّة.

شكرني، واعتذر مرَّةً أخرى، موضِّحًا أنَّه قضى ثلاثًا وثلاثين ساعةً في السفر، وأنَّه لم ينم. ثم أضاف:

ـ أنا أقطن في الجهة الأخرى من الكوكب. في البقعة المقابلة لبلدكم.

ألقى نظرةً من فوق كتفي، وجعلت عيناه تجسَّان الظلام.

شرحت له أنَّ لمبة المدخل قد احترقت.

أغلقت الباب، عدتُ أنظِّفُ القلبيْن من الشحم والأوتار. قطَّعتهما شرائح، ولففتهما في الطحين، ثم وضعتهما في المقلاة.

رنَّ الهاتف في جيْب معطف النورك المعلَّق في المدخل.

إنَّها أختي مجدَّدًا. شغَّلتُ مكبِّر الصوت ووضعتُ الهاتف على منضدة الشغل. سألتني ماذا أفعل: أطبُخ.

سألتني هل شغَّلتُ مكبِّر الصوت.

ـ نعم.

سألتني ماذا أطبخ.

ـ قلوبًا.

ـ وكيف تحضِّرينَها؟

ـ في المقلاة، مع البصل.

ـ بالزبدة أم بالزيت؟

ـ بالزيت.

ـ تلفِّينها في الطحين؟

ـ نعم، ثم أضيف إليها الملح والفلفل.

المقلاة وعلبة الدقيق المطليَّة بالمينا، المزيَّنتان بصور قططٍ صغيرة، كانتا ملكًا لخالة أمّي.

أقول لأختي إنَّني، بعد أن فُكَّ القلبان المجمَّدان، أضيف إليهما ماءً، وأغلق القِدْر، وأتركهما ينضجان ربع ساعة.

ـ وماذا تعدِّين طبقًا مصاحبًا لهما؟

ـ بطاطا مسلوقة.

وإذ أخبرتُها أنَّني لا أستطيع أن أستعمل غير موقديْن في الوقت نفسه، سألتني هل ما أزال أعاني مشاكل كهرباء.

ـ نعم، فاصل الكهرباء يصيبه العطب طيلة الوقت.

أضفت بعد برهة صمت:

ـ مجدَّدًا احترقت لمبة المدخل.

وبينما أقشِّر البطاطا، حكيت لها كيف أنَّ سائحًا أجنبيًا أخطأ الطابق وطرق بابي.

بباعثٍ من الفضول سألتني عن أصله. أخبرتها أنَّني لم أسأله، لأنَّه وصل للتوّ من سفرٍ قضى فيه أكثر من ثلاثين ساعةً.

ـ كلُّ ما أخبرَنِيه، أنَّه أتى من الجهة المقابلة من الأرض.

خمَّنَت أنَّه من أستراليا.

ـ كان بمفرده؟

ـ نعم.

ـ ولم تسأليه عمَّ أتى به إلى هنا؟

ـ كلَّا.

ـ هل حدَّثته عن توقُّعات الطقس؟

ـ كلَّا، لم يخطر ببالي ذلك.

أطفأتُ الموقد. وضعت القلبيْن في صحنٍ. وبينما أغسل المقلاة، تذكَّرَت أنَّها نسيت الأهمّ: عشيَّة أعياد الميلاد. أخبرتها أنَّ عليَّ أن أعمل، لم يتغيَّر الأمر منذ آخر مرَّةٍ ناقشنا فيها الأمر.

ـ لديَّ ورديَّة ليل.

ـ ليلة الميلاد؟

ـ نعم، ليلة الميلاد.

ـ تلك هي اللحظة التي ستنطلق فيها العاصفة من عقالها. منخفضٌ مهول.

أستطيع أن أحتجَّ بأنَّ الأطفال يأتون إلى العالم، بغضِّ النظر عن حال الطقس. يأتون في أصفى لحظات الصفو، وأكدر أوقات الكدر.

ـ لا يمكنكِ إذن أن تحتفلي معنا بأعياد الميلاد؟

ـ كلَّا، لا يمكنني.

نبَّهتني إلى أنَّني فوَّتُّ أعياد السنة الماضية، وكذلك قبلها بعامَيْن.

ـ أرى أنْ ليس من العدل أن تشتغلي عشيَّة كلّ ميلادٍ، بدعوى أنْ ليس لديكِ أطفال.

برهة صمت.

خلصَت:

ـ ستحزن أمِّي.

في آخر وجبةٍ عائليَّةٍ جمعتنا، ظلَّت أمِّي تتحدَّث عن الموت. وأبي يهزّ رأسَه بانتظام، وزوج أختي يصغي إليها بانتباه. ثم قصد إلى المطبخ، يعبِّئ غسَّالة الأواني، وظلَّ والداي يناقشان أسعارَ التوابيت، وجودتَها، والطلبيَّات الجارية. وبعد أن أتت أمِّي على ثاني كؤوس البورتو، أعلنت:

ـ كثيرون هم أولئك الذين ودُّوا لو يضيفون إلى حياتهم جملةً أو جملتَيْن.

أجاب والدي متفلسفًا:

ـ يموت الناس في أعياد الميلاد، كما يموتون في أيِّ وقتٍ غيره.

بعد ذلك، انتقلت أختي إلى مسألة الهدايا، هل فكَّرتُ فيما يمكنه أن يُسعدني؟

ـ كلَّا، لم أفكِّر، الحقّ أنِّي أملك كلّ ما أحتاجه.

ـ أمِّي أيضًا لم تجد هديَّةً تهديك إيَّاها.

كلَّما هاتفتني أمِّي تعجز عن وداعي، فتطول المكالمة إلى الأبد. كذلك حين نلتقي، تعانقني، وتمانع في فكِّ الارتباط. أعرف فيما تفكِّر: كلّ مرَّةٍ قد تكون الأخيرةَ. ترفض أن تستثمر في أيِّ مشاريع، عدا مشاريع الدفن. ما الفائدة؟ تلك عبارتُها الأثيرة. تدهش إذ يطلب منها طبيب الأسنان عيادتَه بعد سنة، فتقول في نفسها، بعد سنةٍ، من يدري من يعيش ممَّن يموت! حتى الذهاب إلى المسرح يطرح مشكلةً، لأنَّنا لا نضمن لها أن تستعمل التذاكر المحجوزة؛ ألم يسبق لها أن رأت مرارًا، أثناء العرض، مقعديْن شاغريْن في أفضل موضعٍ من المسرح. وما دمنا نغامر دومًا، حين نخطِّط لعطلنا، قبل أوانها بوقتٍ طويل، فقد انتهى بها المطاف إلى أن قصرت حركتَها على مساحةٍ لا تتجاوز محيط حديقة بولستدارثيد التي تخرج إليها مسلَّحةً بدلوها وقفَّازيْها المطّاطيّيْن.

أن تخطِّط يعني أن تموت، وكذلك أن تتِمّ شيئًا ما. الحياة تنفلت من بين أصابعنا، لذلك تراها تنتظر دومًا أن يأتي أحد

زملاء المهنة لحملِها، أن يأتي عليها الدور، فلطالما رأت كثيرًا من الناس يرحلون قبل الأوان، ذلك جزءٌ من المهنة. تقول: كلَّما سرت أمام تابوت، أُفكِّر: هذا ليس أنا. دوري ليس اليوم. ليس هذه المرَّة. يومٌ آخر ينقضي قبل أن يطالني الموت.. تلكم هي اللازمة التي تلي كلّ دفن.

حين تزورني، تفعل ذلك غالبًا دون إعلام مسبق. تقصد إلى المطبخ مباشرةً، وقبل أن تنطق بأيِّ كلمةٍ، أجدها أمام حوض الغسيل منهمكةً في غسل الأواني، وإن كانت الأواني لا تتعدَّى فنجانًا وملعقتيْن. فإن فرغت من غسل الأواني، وترتيبها في الخزانة، تمسح منضدة المطبخ. ثم تنتقل إلى الصالون، فتربِّت على الوسائد. ثم تعمد إلى الكتب الموضوعة على الطاولة، فتُعيدها إلى المكتبة. وتنتهي من ذلك كلّه، بأن تدخل سبَّابتها في تراب الأصص الموضوعة على حاشية النافذة، تفحص عمَّا إذا كانت النباتات تحتاج ماء.

أملك غابةً كاملةً من نباتات الزينة، ورثتها عن خالة أمِّي.

بعضها زرعَته، واعتنَت به مُذ كان بذرة. حين كنت أعيش عندها، كانت تأخذ كلَّ وقتها في تقديم كلِّ نبتةٍ منها إليّ. كانت تجعلني ألمس أرباقها، وأتحسَّس نسيجها. ثم تُخرج كرّاس النباتات، لكي تُريني كلًّا منها في موئلها الطبيعيّ، هناك حيثُ، على حدِّ تعبيرها، ***لا تهبّ الريح البتَّة***، تلك الأماكن التي تسمِّيها مأواها.

تردِّد أمِّي:

- في بيتي، لا تحيا أيّ نبتة. حتى السرخس لا يحيا.

أمّا أنا، فأرى أنّني أملك أقدم نبتة بيغونيا في النصف الشماليّ من الأرض. ما زال تحت الأصيص ملصقٌ، امّحى نصفُه، عليه ثمن الشراء وتاريخه، يُشير إلى أنَّ الشراء تمَّ منذ ثمانٍ وأربعين سنةً. ***أرأيتِ يا صغيرتي دييّا، بخلاف الإنسان، تسعى النباتات إلى النور***. أمثال تلك المعادلات كانت أثيرةً لدى الخالة فيفا: الإنسان والنبات، الإنسان والحيوان.

تقول لي أمّي:

- ينبغي دومًا أن تتركي منزلكِ كما تحبّين أن يجدَه الآخرون إن مُتِّ.

غوينفير

ذات مساء، وقد انقضى عامٌ تقريبًا على وفاة الخالة فيفا، استجمعتُ قوايَ، وقرَّرتُ أن أستكشف الأدراج المكتظَّة بالأشياء. أحدها كان مقفلًا، لكنَّني لم أحتج كثيرًا من الوقت لكي أجد مفتاحَه. أذكر، ذكرى مبهمة، أنَّها حدَّثتني عن هذا المفتاح، لمّا زرتها في المستشفى، حين أصيبت بنوبةٍ قلبيَّة. أظنُّها قالت لي: مفتاح الدُّرج الأعلى مخبَّأٌ في دُرج الأسفل. حين فتحته اكتشفت أظرفًا، تحديدًا حزمةً من الرسائل مربوطةً بخيطٍ أحمر معقودٍ كصليب. كلّ الرسائل من امرأةٍ واحدة، غوينفير، وهي قابلةٌ من بلاد الغال، تبادلت معها أمِّي الرسائل طيلة عشرات السنين.

بين حزمة الرسائل، واحدةٌ كُتبت بخطّ يد الخالة فيفا، الظاهر أنَّها قد أُعيدتِ إليها، مع ملاحظةٍ على الغلاف: ***لم يعد المرسل إليه يسكن في هذا العنوان***. تحتفظ الخالة فيفا في ملفٍّ

بمسوّداتٍ من رسائلها، حيث تشطب على كلماتٍ، وأحيانًا على جملٍ بأكملها، قبل أن تصلِّحها بمساعدة معجم إنجليزيٍّ ـ أيسلنديّ، وتُعيد نسخها بلا أخطاء. يحوي الدُّرجُ كذلك عددًا كثيرًا من البطاقات البريديَّة (وُضعت في علبةٍ معدنيَّةٍ شبيهةٍ بتلك التي وُضعت فيها الأزرار، غير أنَّ في هذه حلَّ الصيف محلّ الثلجِ في تلك، وتظهر وسط المروج بقرةٌ ترعى. لاحقًا، عرفت أنَّ غوينفير هي التي بعثت إليها بتلك الشوكولاتة. أُرسلت إليها البطاقات من مناطق مختلفةٍ من العالم، من بريطانيا، ومن القارَّة الأوروبيَّة، وواحدة من الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، وكلّها نسخٌ من لوحاتٍ شهيرةٍ تُصوِّر العذراء مريم، تارةً حاملًا، وطورًا مع يسوع طفلًا. استعرضتُها. إحداها أثارت اهتمامي على نحوٍ خاصّ. فيها مريم تلقم يسوعَ ثديَها. لم أحتج كثيرًا من العناء لأتذكَّر أين رأيتُها؛ إنَّها النموذج الذي اعتمدته الخالة في شغل اللوحة القماشيَّة الكبيرة المعلَّقة في الصالون. الإشارة على البطاقة تقول إنَّ اللوحةَ زيتٌ على خشب، من رسم يوحنَّا هاي، وهو معلِّمٌ فلامانيٌّ من القرن الخامس عشر.

فوجئت بأنَّ الخالة فيفا قد غيَّرت كثيرًا من تفاصيل اللوحة. مثلًا، حذفت ملكيْن من الملائكة الأربعة المرسوميْن في الخلفيَّة، كما بسَّطت أغلب الخطوط كي تستجيب لمتطلِّبات فنّ القماش، إلَّا تلك التفاصيل المتعلِّقة بالثدي. لاحظت كذلك أنَّ مريم في لوحة الخالة تمسك الثدي بطريقةٍ مختلفةٍ عن تلك التي صوّرَها يوحنَّا هاي: ثدي الخالة فيفا متَّجهٌ شطرَ الطفل الذي تشدُّ أصابعُه على أصابع أمّه. وعلى الوسائد المخمليَّة التي طرَّزَتها الخالةُ،

أضافت وردةً لا توجَد في اللوحة الأصل، أخالُ أنَّها زهرة درياس ذات الثماني بتلات.

تُشير الرسائل إلى أنَّ المرأتيْن كانتا تتحدَّثان عن تلك اللوحات. في إحدى الرسائل، تقول غوينفير إنَّها تتَّفق مع الخالة: *النور لا يُضيء الصبيّ وإنَّما يشعّ منه. بدا لي ذلك بديهيًّا حين وقفت على اللوحة الأصليَّة*. وفي موضع آخرَ، أبعدَ، تُضيف أنَّ أمّ النور الأصليَّةَ كانت قطعًا أُمًّا يافعةً، *طَفلةً في الرابعة عشرةَ أو الخامسة عشرةَ من عمرها، وُلدت في فلسطين*. وكانت تلك مناسبةً لتسهب الكلام في *الأمَّهات اليافعات، والأبناء الذين لا آباء لهم*. كتبت غوينفير: *لقد فكَّرت في كلِّ ما قلته لي عن كلّ أولئك الأطفال الذين يصيرون آباءً في بلادك، وتلك الخرافة القديمة التي تقول إنَّ الأطفال الذين ينجبهم أطفالٌ آخرون يصيرون كبارًا سعداء. الأمر عندنا مختلف.*

حدائق الحيوان

ظلَّت خالة أمِّي تتراسل مع تلك المرأة أكثر من أربعين سنة، وفي حدود علمي، لم تلتقيا سوى مرَّةٍ واحدة، حدث ذلك سنة 1977، سنة ميلادي. أخبرتني أمِّي أنَّ أبي هو من أوصل الخالة فيفا إلى المطار، ثم أعادها منه عند رجوعها. لم ترافقه أمِّي لأنَّ عربة نقل الموتى لا تحمل أكثر من راكبٍ واحدٍ، فضلًا عن السائق والشخص الممدَّد في الخلف. تلك كانت المرَّة الوحيدة التي سافرت فيها الخالة فيفا خارج البلد، وهناك زارت حديقةً ومتحفًا للفنون الجميلة. وللغرابة، لا نعثر في رسائلها على أيِّ إشارةٍ إلى السفر أو اللقاء بالزميلة الويلزيَّة.

في تلك الفترة نفسها، بدأَت في كتابة مقالاتٍ، تدعو في أغلبها إلى حماية الحيوانات، تحت مسمَّى العناية بالحيوان. بعض تلك المقالات يُلقي الضوء على الآثار المدمِّرة للإنسان على الكوكب. وقد قصَّت من الجرائد المقالات التي نُشرت، ورتَّبتها

في إضبارةٍ سميكةٍ ضمَّنتها كذلك عددًا كبيرًا من النصوص المكتوبة على الآلة، نصوصٍ يبدو أنَّها لم تُنشر بعد. أقدمُها ـ *في المعاملة السيِّئة التي تتعرَّض لها الحيوانات في الحديقة وعن موئلها الأصليّ في كنف الطبيعة* ـ كُتب بعد عودتها من الخارج بمدَّةٍ يسيرةٍ، وأحدثُها فكتبته بعد أربعين سنةً تقريبًا، قبيل وفاتها في سنِّ الثالثة والتسعين.

أتذكَّر ذكرياتٍ مبهمةً أنِّي رأيت، أيَّام كنت طفلةً، مقالاتٍ على الجريدة مزيَّنةً بصورتها. تُشير المقالات كلّها إلى مهنة كاتبتها، وتستعمل جميعًا الصورة نفسها، صورة شابَّةٍ في زيٍّ قابلةٍ من سنوات 1940، أي بلوزةٌ بيضاء وطاقيَّةٌ متناغمةٌ معها، ترفع عينيْها شطرَ الزاوية اليمنى من إطار الصورة، وقد اتَّخذ وجهها ملامح الرزانة والتركيز. الرسالة المتضمِّنة في أوَّل مقالاتها، كانت واضحةً، ينبغي أن نحمي حيوانات الأرض من أشدّها أذًى، الحيوان البشريّ. ***لا سبب البتَّة لحبس المفترسات، على شاكلة الضباع، في أقفاصٍ ضيِّقة، لا لغايةٍ سوى منح الإنسان إمكان أن يتأمَّل نفسَه***؛ ذلكم ممَّا قالته بين أشياءَ كثيرة. ولمَّا كانت كلمة «حيوان» تتَّخذ في ذهنها دلالةً إيجابيَّة، فإنَّ رسالتها ما كانت تمرّ من غير أن تخلِّف شيئًا من المفارقة. في المقال نفسه، تبسط مطوَّلًا ***الظروف المروِّعة لحياة*** الدبّ القطبيّ في الحديقة التي تراها ***شديدة الحرّ***. دهشتُ لمَّا تبيَّنتُ أنَّها، منذ ذلك العصر، تطرَّقت لموضوعٍ صار لاحقًا موضوعًا مركزيًّا لديها: ذَوَبان أكبر احتياطيٍّ للماء العذب على كوكبنا، أقصد القمم القطبيَّة والأنهار الجليديَّة. تنبّهنا، داقَّةً ناقوس الخطر، أنَّ ***بهذا الإيقاع، ستختفي***

الدببة القطبيَّة خلال بضعة عقود. وبحسب تقديرها، فإنَّ ***العالم سيجد نفسَه***، قبل ذلك، ***في عوزٍ إلى الماء الشروب***. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أنَّه، على الرَّغم من أنَّ العلماء قد نبَّهوا، منذ ذلك العصر، إلى الأخطار التي ترتسم في الأفق، إلَّا أنَّه يظلُّ أمرًا عجيبًا أن تكتب قابلةٌ في الجرائدِ، منذ ثلاثٍ وأربعين سنةً، مبديةً قلقها على مصير الدببة القطبيَّة!

إذ أُقلِّب قصاصات الجرائد المصفوفة في الإضبارة، أنتبه إلى أنَّ الخالة فيفا كانت تهتمّ بمواضيعَ شتَّى. تتطرَّق في مقالةٍ إلى موضوعة الحيوانات المستأنسة، تلك التي يفترض أن تعود إلى بيئتها الطبيعيَّة، بدلًا من ***المدن حيث تدهسها السيَّارات***. وفي مقالةٍ أخرى، تتحدَّث عن إزالة الغابات، تحديدًا عن ***هذا الهوس البشريّ بقطع الأشجار وإحراقها خلقًا للمراعي***. نُشرت تلك المقالات في جرائد شتَّى، ***الصباح*** Morgunblaõiõ ***والزمن*** Timinn، ***والإرادة الوطنيَّة*** pjóõviljinn، ***والمزارع*** Bændablaõiõ، وبعضها لم يحظَ بالقبول لدى رؤساء التحرير، ما دام ما يزال في صيغته الخام، مكتوبًا على الآلة. مثلًا، لا أظنُّ أنَّ المقال الذي يحمل عنوان ***بيغونيايَ*** قد نُشر. وفيه تتناول، من بين ما تتناوله من قضايا، مسألةَ نباتات الزينة ***المستقدمة من أراضٍ خصبةٍ وجنوبيَّة، المعتادة على أجواءٍ حارَّة، حيث تنمو في الهواء الطلق. لهذه النباتات ميزة إمكان أن تُنقل من حاشية نافذةٍ إلى أخرى، وأن يحملها المرء معه إن غيَّر السكن***. ينتهي النصّ نهايةً حادَّةً صارمة: ***إنْ كانت تلك النباتات تحتاج الإنسان حين تعيش في أصيص، فإنَّها لا تحتاجه حين تكون في موئلها الطبيعيّ***.

بذرة

استوقفتني على نحوٍ خاصٍّ مسوّدةٌ تحمل عنوان بذرة، مؤرَّخةٌ بعام 1978. يبدو أنَّه نصٌّ لم يُنشر قطّ، ويستهلّ على النحو: ***بصفتي قابلةً، لاحظتُ تنامي المشاكل التي تواجه الأزواج الراغبين في الإنجاب***. وفيه تندِّد بإلقاء النفايات السامَّة وتلويث البحار التي تسمِّيها ***المحيط المشترك***. تقول: ***لقد اكتشفت أنَّ ملّاحين يبحرون بأضواءٍ مطفأةٍ ويلقون بسموم في البحر، متستِّرين بجنح الليل***. تؤكِّد، ***من مصدرٍ موثوق***، أنَّ تغذية الأسماك ما انفكَّت تدخل فيها نسبةٌ مهمَّةٌ من البلاستيك. . ***ثم يتناولها الإنسان***! أتعجَّب كيف لخالة أمِّي أن تستعمل معجمًا لم يصبح رائجًا إلَّا من سنواتٍ بعد ذلك. كتبتْ مثلًا، ***إنَّ الحيوانات المنويَّة ما انفكَّت تزداد خمولًا ، ويشقُّ عليها أن تسبح حتى البويضة***. على امتداد الأعوام والنصوص، نصادف مفاهيمَ مألوفة، من قبيل ***التحمّض***، ***وموت المحيطات***.

من بين المقالات الكثيرة المخصَّصة لنوعٍ بعيْنه، أغلبُها يهتمّ بالنحل، *الحيوان الأهمّ على الكوكب*. يمكننا أن نقول إنَّ الخالة فيفا لم تكن تلوك الكلام. كتبت سنة 1982 نصًّا عنوانُه: *اختفاء النحل إيذانٌ باختفاء البشر*؛ ثم كتبت بعد ثلاثين سنةً: *النحل أهمّ من الإنسان*. في المقال الأوَّل، تبيِّن أنَّه *ينبغي أن نُعطي النحلات المتعبات ملعقتيْن صغيرتيْن من السكَّر مع مقدار ملعقةٍ من الماء. من شأن ذلك أن يمنحها الطاقة اللازمة لتعود حتى الخليَّة*.

ينتابني الانطباع بأنَّ هذه النصوص تشكِّلُ مسلسلًا تلفزيونيًّا. مثلًا، منذ سنة 1977، بدأت تنشر لائحةً بأسماء الأنواع التي انقرضت: *بضع ملاحظاتٍ بشأن الأنواع التي انقرضت والطيور التي اختفت منذ طفولتي*. لتخلص إلى النتيجة: *كلّ يوم نخسر أنواعًا، وفي نهاية المطاف سنخسر نوعنا*. الظاهر أنَّها كانت تحيِّنُ تلك اللائحة كلّ سنةٍ، وتنشرها بين الفينة والأخرى. سنة 2015، أي عامًا قبل وفاتها، كتبت آخر مقالٍ في الموضوع: *ملايين الأنواع الحيوانيَّة والنباتيَّة فقدناها للأبد، ضحَّينا بها على مذبح الجشع البشريّ*، وفيه تضع قوائمَ بعددٍ من الحيوانات، والطيور، والأسماك، والنباتات المنقرضة. ترافِقُ المقالَ صورةُ جورج المفرد، غيلمُ جزر غالاباغوس العملاقُ.

بحسبها، إنَّ السببَ الأكبر لهذا الانقراض الكثيف بديهيٌّ. *بدلًا من أن يتحلّى الإنسان بالتواضع أمام مملكة الحيوان والنبات، فإنَّه يسعى إلى تملُّك كلّ شيء، والاستفراد به. يريد أن يمتلك أسماك المحيط كلّها، وكذا أنهار الجبال الصافية، يريد أن يتملَّك شلَّالات المياه، والجزرَ، يريد أن يتملَّك كلّ شيءٍ حتى*

غروب الشمس. تلكم وسيلته في أن ينكر حقيقتَه، حقيقة أنَّه كائنٌ فانٍ. في النهاية، سيُدرك الأهمَّ، وهو أنَّه مريضٌ، وأيَّامُه باتت معدودةً.

تحدّثت مع صحفيٍّ اشتغل في صحيفةٍ يوميَّةٍ من تلك الصحف التي نشرت فيها مقالاتها. أخبرني أنَّ الخالة فيفا صارت، في آخر حياتها، ترسل مقالاتٍ سبق أن نُشرت منذ عقودٍ. أو، على أيِّ حالٍ، مقالاتٍ شديدة الشبه بها.

أضاف:

ـ يمكن القول إنَّها كانت سابقةً عصرَها، ومتأخِّرةً عنه، في آنٍ.

بعد تفكيرٍ، تذكَّر مقال ***الأرض تحترّ***. مقالٌ نُشر منذ ربع قرنٍ من الزمن، وفيه تؤكِّد أنَّ الإنسان، قريبًا، سيلفي نفسَه كأنَّما يعيش محبوسًا في علبة مصبِّراتٍ تسخَّنُ على نارٍ متَّقدة، ممَّا سيؤدِّي إلى ***هجراتٍ بشريَّةٍ*** مهمَّة. وقد ظلَّت عبارةُ ***علبة مصبِّراتٍ تسخَّنُ على نارٍ متَّقدةٍ*** محفورةً في ذهن الصحفيّ. مقالاتٌ أخرى صُنِّفت متخصِّصةً أكثر ممَّا ينبغي بالنسبة إلى القرَّاء، على غرار المقال الذي حمل عنوان ***فائضٌ عن الحاجة***، وفيه تعالج قضيَّة بحرٍ من أكبر البحار الداخليَّة على سطح الكوكب، بحر آرال، المهدَّد بالجفاف لأنَّ الأنهار الكبرى التي تغذِّيه قد حُوِّل مجراها ***لسقي حقول القطن المستخدم في صناعة ملابس لأناسٍ هم أصلًا غارقون في الملابس الفائضة عن الحاجة***. تبدأ المسوَّدة التي عثرت عليها في الإضبارة، بتصويرٍ خلَّابٍ لحياة السكَّان الذين

كانوا، فيما مضى، يعيشون على ضفاف هذا البحر الثريّ بالأسماك، والمميَّز بمشاهد الغروب الرائعة. ثم ما تلبث خالة أمّي أن تتقمَّص دور النذير قائلةً إنَّ الموضع الذي كان يأوي ذلك البساط المائيّ الممتدّ، سيتحوَّل قريبًا إلى ***صحراء قاحلةٍ تعبُرها الزوابع الرمليَّة والجِمالُ بعدما كانت تسرح فيها الخيولُ الأَنوف.***

لفترةٍ من حياتها، وتحديدًا بعد سفرها إلى الخارج حيث زارت حديقةً ومتحفًا للفنون الجميلة يضمّ لوحات يوحنًّا هاي، ***حاولت أن تتوقَّف عن استهلاك الحيوانات***، على حدِّ تعبيرها. الأمر الذي لم يكن ميسَّرًا، لأنَّ لائحة الخضار، آنذاك، كانت محدودة. تقول إنَّهم لم يكونوا يجدون إلَّا البطاطا، بين شهرَي سبتمبر ويونيو، وأثناء فصل الشتاء تنبِت حبوب البطاطا. أمَّا الطماطم والخيار التي تُزرع في دفيئات هفيراغيردي، فلم تكن تُعرض على الرفوف إلَّا نهاية يونيو، وينبغي انتظار نهاية الصيف للحصول على الجَزر واللفت السويديّ. وأحيانًا قد يفوز بحبَّة قرنبيطٍ أولئك المحظوظون الذين يملكون حديقةً يفلحونها. هي نفسها كانت تنبِت جرجيرًا عند نافذة مطبخها. فجأةً، تخطر لي جملةٌ كانت تُطلقها بغتةً: ***ويُقال إنَّ لحبَّة الطماطم تقريبًا عدد الجينات نفسها التي يملكها إنسان.***

أوتراخُند

أجلس على الكنبة المخمليَّة، مع قلبَيّ، وأشغِّل التلفاز. تستهلّ الأخبار بالتوتُّرات الحدوديَّة المتزايدة وانتشار القوَّات العسكريَّة في عددٍ من القارَّات. ويتطرَّق الربورتاج التالي إلى العاصفة التي يفترض أن تضربنا مساء 24 من ديسمبر، أقوى منخفضٍ شهدته أيسلندا، إن استعملتُ كلمات الراصدة، زميلةِ أختي في المهنة. واردٌ أن تحدث انقطاعاتٌ كهربائيَّة في كلِّ مناطق البلاد، وأن تُلغى احتفالات القدَّاس. وتختم الجريدة بخبرٍ مختصرٍ عن مائةٍ وثلاثين قرية بمقاطعة أوتراخُند بالهند، حيث لم تُولد أيّ بنتٍ منذ ثلاثة شهور: سيُعاني هؤلاء البشر مشكلةً في التناسل.

بعد الأخبار، أشاهد وثائقيًّا مشوِّقًا حول مزارٍ يأوي طيور ببَّغاءٍ في جزيرة بورتو ريكو. يتابع الوثائقيّ مسار أنثى ببَّغاءٍ عاجزة عن أن تضع بيضًا خصبًا. تُخدَّر، ويفحص طبيبٌ مبيضَها. يبدو أنَّ الحيوان، على الرَّغم من كلِّ شيءٍ، قد حُبي غريزة الأمومة.

قرَّروا وضع بيضةٍ في عشّها، والخطرُ، كما بيَّن مختصٌّ، هو أن تدوسَها وتحطِّمها، ما دامت ليست بيضَتها. بالمناسبة، يقولون إنَّ عدد الطيور في المزار يتضاعفُ، كلَّما ضرب الجزيرةَ إعصارٌ.

عمومًا، تروق وثائقيَّاتُ الحيوانِ النساء المواخض اللواتي يكنَّ تحت تأثير تخديرٍ موضعيٍّ أو مسكِّنِ ألم؛ لا سيَّما برامجُ ديڤيد أتينبوره التي تساعدهنَّ في الاسترخاء، حتى وإن كانت وثائقيَّاتٍ عن حيواناتٍ في طور الانقراض، وعن أيَّام الإنسان الأخيرة على سطح الأرض. أخبرتني ماخضٌ أنَّها حين تنصت إلى صوت أتينبوره، تشعر بالأمان، وينتفي لديها كلّ خوفٍ على مصير العالم. قالت لي حرفيًّا: حين أسمع صوتَه أعرف أنَّ كلّ شيءٍ سيسير على ما يرام. كان صوت أتينبوره يذكِّرها بصوتِ جدّها الذي كان يعمل صفَّاحًا، وإن كان جدّها أَمْيَل إلى أن يكون صموتًا. قالت: حين أفكِّر فيه يتهيَّأ لي أنَّني أشمّ رائحة الحديد والتشحيم. ما إن أتت على ذكر جدّها حتى رقَّت وخالطت الدموعُ صوتَها. سألتني هل يوشك الطفل أن يولد. غالبًا، حين تسأل امرأةٌ عمَّا إذا كان الأوان قد حان، فمعنى ذلك أنَّها ما تزال في منتصف الطريق.

نزعت السمَّاعة من أذنيْها، وأغلقت الحاسوب، لفَّت جنبًا جسدَها المثقلَ، وأرخت رجليْها من السرير حتى لامستا الأرض. متَّكئةً بيديْها على أسفل ظهرها قامت عن السرير، وفتَّشت في حقيبتها الموضوعة على الأريكة، فأخرجت منها فرشاة الأسنان والسَّنون، ثم غابت في الحمَّام. سمعتُها تفتح الصنبور. وحين عادت، اتَّصلت بأمّها أمامي:

ـ قالت لي القابلة إنَّني قريبًا أحمل طفلي بين ذراعيَّ. هذا المساء، أو على الأكثر، الليلةَ.

أحيانًا، أختلس النظر إلى الوثائقيّ على شاشات النزيلات. منذ مدَّةٍ غير بعيدةٍ علمتُ أنَّ آخر كركدنٍ أبيض قد نفق، أو تحديدًا، آخر ذكرٍ من نوعه. لم يبقَ من النوع غير أنثيَيْن اثنتيْن.

يتهيَّأ لي أنَّ التلفاز يُبدي إشارات خفوت. أغلقه.

يأتي الإنسانُ إلى العالم عاريًا كَدودةٍ

حين كنت أسكن عند الخالة فيفا، سمعتها غير ما مرَّةٍ تُردِّد: *حين أُفكِّر في أنَّ هذا الرجل قد كان فيما مضى رضيعًا عاريًا كدودة*. أو: *ومن يتصوَّر أنَّ هذه المرأة كانت فيما مضى وليدةً عاريةً تمامًا*. وكانت تنطق تلك العبارات لمناسباتٍ مختلفة، لكنَّها جميعًا تفضي بها إلى نتيجةٍ واحدة: قبل أن يضطهد الإنسانُ أولئك الذين يخالفونَه آراءَه، يأتي إلى العالم عاريًا تمامًا، قبل أنْ يرتكب في حياته أخطاء شتَّى، يكون كائنًا لا يتجاوز طولُه خمسين سنتمترًا. ولم يكن الأمر عندها ينحصر في اكتشاف الخلل، اكتشاف ما يحدث أثناء حياة الإنسان، فيحوِّلُه إلى كائنٍ قابلٍ لأن يرتكب أشرّ الشرور في حقِّ بني جلدته، وفي حقِّ الطبيعة وجميع الأحياء، بل كانت تسعى أيضًا إلى أن تفهم لمَ يسعى بعض البشر خلف الجمال، ويصدّ غيرُهم عنه. تقول متنهّدةً: *حين أفكِّر*... وهي تستمع، بعينيْن مغمضتيْن، إلى

السلوان رقم 3 ري بيمول كُبرى لفرانز ليست، بعزف هوروفيتز، وعلى ركبتيْها غشاء الأسطوانة. لم تكن تحتاج أن تُنهي جملتها، كُنت أفهم. أو كانت تتناول ديوان شعر، فتملأ الصالونَ *نغمةٌ راجفةٌ خارجةٌ من آلةٍ خفيَّةٍ*، وتقول: حين أفكِّر في أنَّ هذا الشاعر لم يكن وزنُه يتجاوز 3,5 كيلوغرامًا لحظةَ ولادته.

جميع كتبها، وجزءٌ من كتب جدَّتي، مصفوفةٌ على رفوف الصالون. كلاهما كانت تملك مجموعةً رائعةً من الدواوين، وأحيانًا تكون لدى كلٍّ منهما نسخةٌ من الديوان نفسه. أراهُما جالستيْن على الأريكة، أثناء اجتماعات العائلة، كلٌّ منهما غائصةٌ في كتابها. وبعض الدواوين منها ثلاث نسخٍ، إذ سرعان ما صارت خالة أمِّي إلى إهدائي نسخًا من الدواوين التي تحبّها. كتبٌ أخرى، ممَّا تركته جدَّة أمِّي، انتهى بها المطاف أيضًا هنا، هدايا من أُناسٍ صادفتهم في عملها، وبعضها يحمل إهداءً: *إلى القابلة التي على يديْها أتى أبنائي إلى العالم*. بعضها، ممَّا نُشر في أعدادٍ محدودة، كتبته نساءٌ عرفتهنَّ جدَّتي شخصيًّا. فتقرأ على صفحاتها الأولى: *من المؤلِّفة*. أغلب تلك القصائد أغانٍ لنور الليالي الربيعيَّة، ولاستيقاظ الطبيعة، وللحياة؛ لكنْ ثمَّة أيضًا *مقاطع شعريَّة نُظمت لمناسبةٍ ما*، عيد ميلادٍ أو وفاةٌ في المنطقة.

نهايةَ حياتها، صارت الخالة فيفا تقضي وقتها في قراءة الكتب نفسها وإعادة قراءتها. تقرأ محرِّكةً شفتيْها، وأحيانًا تفرك عينيْها بعد الفراغ من القراءة، ثم تحدِّثني عن النور ومهالك الحياة. عن هشاشة النور. ويعرض لها أن تقرأ عليّ أسطرًا بصوتٍ عالٍ.

أُريد أن أشهد دمك يسيل ويختفي

في الرمل العطشان.

تخلص قائلةً:

ـ إنَّه الجمال يا صغيرتي ديبّا، الجمال.

نادرًا ما كانت تستشهد بتراتيل أرضنا الأمّ، باستثناء هذين البيتيْن من قصيدة *أيسلندا* لـ بيارني ثورارنسن، بيتيْن كانت تحفظهما عن ظهر قلبٍ وتردِّدهما في كلِّ مناسبة:

مجدَّدًا، في أحشائك العتيقة، يا أرضنا الأمَّ،

يمضي أبناؤك...

تضمّ مكتبتها كذلك بعض السِير والرحلات، وكتابًا في تفسير الأحلام، وكتاب فنٍّ يزيِّنُه كثيرٌ من صور العذراء مريم، أهدته لها مراسلتُها من بلاد الغال. تحتلّ *الموسوعة البريطانيَّة*، في نسختها الكاملة، رفَّيْن من الرفوف، ويكفي أن تنظر إلى الفواصل والجذاذات المحشورة بين صفحات أجزائها، لتُدرك كمّ المقالات التي قرأتها عن مملكة النبات والحيوان. أثار انتباهي، على نحوٍ خاصٍّ، كتابان، مجموعةٌ شعريَّةٌ للأرجنتينيّ خورخي لويس بورخس، ومجلَّدٌ للفيلسوف والرياضيّ الفرنسيّ باسكال. في كتاب *Tanker*، وهو الترجمة الدانمركيَّة *لخواطر* باسكال، دسَّت فاصلًا من دانتيل. وقد دوَّنت في الكتاب اسمَها، وتاريخَ ومكانَ شرائه، كان عمرها آنذاك سبعًا وسبعين سنةً. في صفحةٍ من الصفحات، وُضعت علامة على الحاشية. مقابل العلامة أقرأ: ***حيثما نظرتُ، لا أرى إلَّا النهايات، تحبسني كذرَّةٍ، وكظلٍّ ليس يدوم إلَّا برهةً لا ارتجاع لها.***

ليكن النور ش. ذ. م. م.

أتذكَّر بغتةً أنَّني منذ أسابيع، أثناء ورديَّة الليل، استقبلت لزوجيْن أوَّل مواليدهما، عشرةَ أيَّامٍ بعد الموعد النهائيّ المفترض للولادة. وحين ودَّعتُ الأمّ والرضيعَ، ناولني الوالدُ بطاقة أعماله، وحضَّني على ألَّا أتردَّد في الاتِّصال به متى ما احتجتُ كهربائيًّا.

ـ في أيِّ وقتٍ من النهار أو الليل.

قال إنَّه أقلُّ ما يمكن أن يردّ به الجميل، ما دام ابنُه قد وُلد في الثانية صباحًا، وبالتالي سيمنحني الأولويَّةَ دائمًا.

كرَّر القول:

ـ لا تتردَّدي.

ثم صافحني وشكرني على ***كلِّ شيء***. وكانت الولادة قد جرت على خير ما يرام. أعرف بالتجربة أنَّه كلَّما قلَّت حاجةُ القابلة إلى الكفاح أثناء الولادة، زادت أمارات امتنانِ الوالديْن لها.

عثرت على بطاقة الأعمال في دُرج المطبخ، تحت الدُّرج

الذي أرتِّب فيه مناشف خالة أمِّي، وسط علب أعواد الثقاب، وشموع التسخين، والبطَّاريَّات.

على البطاقة قرأتُ:

SARL Fiat lux *(ليكن النور ش. ذ. م. م.)*

Fiatlux.is

تناولتُ هاتفي، ونظرت إلى الساعة. إنّه مساء الجمعة، الساعة الثامنة والنصف.

أجابني الكهربائيّ فورًا، وبدا متهلِّلًا لاتِّصالي. تهيَّأ لي أنِّي سمعت أنين طفلٍ قريبًا منه، ثم صوتًا أبعد سألَه سؤالًا ما، فأجاب:

ـ إنَّها القابلة.

سألتُه عن حال الأمّ والطفل. قال مشدِّدًا على الكلمة: الوليدُ ينمو كما ينبغي. وكان الطفل آنذاك بين ذراعيْه. الصغير يعاني من المغص وعسر النوم. يخفض الأب صوتَه، فيخيَّل إليَّ أنَّه ينوي إضافةَ شيءٍ ما، لكنَّه يكتفي بالسؤال عن الداعي إلى اتِّصالي.

أبيِّن له أنَّني أقضي معظم وقتي في تغيير لمبات المنزل، خلال الأسبوعيْن الماضيَيْن غيَّرت خمسًا، وقاطِعُ التيَّار يتعطَّل في كلِّ وقتٍ وحين.

ـ لم تعبثي بالكهرباء؟

ـ لا.

ـ ولا طرقتِ مسامير أو حفرتِ ثقوبًا قريبًا من الأسلاك الكهربائيَّة؟

ـ ولا هذا.

ـ ليس معكِ مراهقٌ يصل بقابس واحدٍ، حاسوبَه وهاتفَه وأربع آلاتٍ أخرى؟

ـ كلَّا، لا يعيش معي أيّ مراهق.

عدَّدت له المواضع التي تتسبَّب في انقطاع الكهرباء، منتهيةً بالغلَّاية الكهربائيَّة.

ـ كلَّما وصلتها بالكهرباء، انقطع التيَّار.

إنَّ الآلة قديمةٌ جدًّا، وأتساءل عمَّا إذا كان العطب في سلكها. أضفت أنَّ لديَّ أيضًا مشكلًا في الطبَّاخة الكهربائيَّة التي لا يعمل من مواقدها سوى اثنيْن!

اقترح رجلُ الصنعةِ عدَّة فرضيَّاتٍ. إن كان العطلُ في سلك الأرضيّ، فإنَّ الكهرباء ستنقطع في الشقَّة بأكملها. وإلَّا فإنَّ العطل في الفتائل. أمَّا إذا لم يكن العطل في هذا ولا في تلك، فينبغي فحص التوصيل الكهربائيّ، فلربَّما قضمت الأسلاكَ بعضُ القوارض.

سألني عن عنواني. لحسن الحظّ، كنَّا نسكن الحيَّ نفسَه.

ومزيدًا في حسن الحظّ، يستطيع أن يأتي من فوره، ما دمت قد صادفته حرًّا من كلِّ التزام.

قال مجمِلًا:

ـ لا بدَّ لكِ، على أيِّ حالٍ، من أن تُشعلي زينةَ شجرةِ الميلادِ الكهربائيَّةَ.

يبدو أنَّ ثمَّة ضجيجًا في الشقَّة تحت العلِّيَّة، الشقَّة التي يشغلها السائح الأجنبيّ.

وكان النور

في انتظار الكهربائيّ، رتَّبت الأحذية التي كانت تتراكم في المدخل. ثم دنوْت من المرآة ما أمكن. منذ مدَّةٍ وأنا أدَّخر النقود لإجراء عمليَّة ليزر أعالج بها قِصَر نظري. تعبت من قضاء معظم وقتي في خلع النظَّارة ومسحها تحت المطر وفي الريح، أو وسط العاصفة الثلجيَّة. كذلك يغطِّي زجاج النظَّارة البخار حين أنحني على المواخض في الأحواض التي يضعنَ فيها مواليدهنَّ.

بعد لحظاتٍ، أتى الصانع. إنَّه أمام العمارة. هاتف المسكن لا يعمل كما ينبغي، لذلك نزلت لأفتح له.

قال لي فورًا:

- باب العمارة تنقصه الإضاءة.

في يده حقيبة أدواته، يرتقي درجات السلّم أربعًا أربعًا.

دخل بيتي، وجاس المكان بعينيْن دهشتيْن.

ـ هنا تسكنين؟

ـ نعم.

ـ وعددكم هنا كثير؟

ـ لا، أنا أعيش وحدي.

ـ لو لم أكن أعرفكِ، لقلتُ إنَّ الشخص الذي يعيش هنا يكبُرك بأربعين عامًا. لا يبدو لي أنَّكِ قد قمتِ بإصلاحاتٍ منذ وقتٍ قريب.

أريتُه مكان لوح خزانة الكهرباء، فأخرجَ مصباحَه، وفحص داخلَه. ثم مضى في الفحص، من مرفقٍ إلى آخر، يطفئ الأنوار ويشعلها، يشدّ الأسلاك، يفحص المقابس والتوصيلات.

ـ ما يزال لديكِ مفاتيحُ مصنوعةٌ باليد، وحلوقٌ من صُفر، وأغمادُ لمباتٍ نحاسيَّةٌ، وأسلاكٌ لُفَّ عليها قطنٌ مضفور. نادرٌ أن نصادف مثل هذه الأشياء!

تأمَّل رزمة الأوراق الموضوعة على المكتب.

ـ أنتِ تكتبين؟

ـ إنَّها أوراق خالة أمِّي، كانت تسكن هنا قبلي.

أخذ يتأمَّلني.

قلت:

ـ هي أيضًا كانت قابلةً.

واصل جسّ المكان بعينيْه. لم يسبق له قطّ أن رأى هذا الكمّ من الأثاث مكدَّسًا في شقَّة.

ـ لديكِ كامل المجموعة: لوحةٌ طُرِّز عليها بالإبرة ***ليُبارك الربُّ هذا المنزل***، مكتبٌ عتيق، وأكواب المازاغران، كلابٌ من خزفٍ، وتذكارات. طقما صالونٍ كاملان، أرائك ومقاعد.

وقف على البساط المزيَّن برسوم الورود المذهّبة، أمام اللوحة القماشيَّة التي تعلو الأريكة المخمليَّة.

ـ هذه العذراء والطفل يسوع؟

ـ نعم.

ـ وهي تُرضعُه.

ـ نعم.

ـ أنتِ من صنع هذه اللوحة القماشيَّة؟

ـ لا، إنَّها من صنع خالة أمِّي.

ـ المرأة التي كانت تعيش هنا قبلك؟

ـ نعم.

رجع إلى مشاكلي الكهربائيَّة.

ـ شقَّتكِ ينقصها النور. ينبغي أن تضعي مصباح سقف، ومصابيح حائطيَّة، وكذا مصباح سپوت لإضاءة الطفل يسوع في الصالون. تحتاجين كذلك لمبةً فوق المرآة عند المدخل، وفي الحمَّام، وإضاءةً مناسبةً للمطبخ. لن أجازف باستعمال السكاكين في غبشٍ مماثلٍ، لن أجرؤ حتى على تقشير البطاطا.

تشخيصه الأوَّليّ، أنَّني عطبت الفاصل، إذ استعملت في آنٍ مصابيحَ وغلَّايتي المعيبة.

أخفى مصباحه الكهربائيّ في جيبه. لا يبدو مستعجلًا الانصراف، تناول مقعدًا من مقاعد المطبخ، وجلس عليه.

جلست قبالته. قال إنَّ الخروج من منزله مناسبةٌ لتغيير الجوّ.

ـ تعلمين، نظريًّا أنا في إجازة أبوَّة.

بعد برهة صمتٍ، أضاف أنَّه قد أهدى زوجته لمبةَ شروقٍ.

ـ لمبة شروق؟

أجاب شارحًا:

ـ إنَّها لمبةٌ تحاكي شروق الشمس.

أحد رفاقه يبيعُها، وبوسعه أن يأتيني بواحدة.

ـ ثمَّة منها ما يكون مع منبِّهٍ، يمكن أن يوضع على منضدة السرير.

هزّ رأسَه متأمِّلًا آلة تحميص الخبز.

ـ تستطيعين أن تضعيه في المطبخ. حين أصلح المقبس. لكِ أن تختاري أيّ موضعٍ تشائين أن تشرق منه الشمس في شقَّتك.

ضرْبات مطرقةٍ تشي بأنَّ جارتي، تحت، منهمكةٌ في تطرية قطعٍ من لحم الفخذ، أو تعليق لوحاتٍ إلى الحائط.

أقوم، أخرج مرجلًا، وأضع فيه ماءً يغلي على أحد الفرنيْن اللذين يعملان، لأحضِّر قهوة.

ألمح زائري يدنو من الجدار، فيجسّه في دهشةٍ.

ـ يوميَّةٌ لشركة النقل البحريّ أيمسكيب، تعود إلى سنة 1977؟

قلت:

ـ نعم، سنة ميلادي.

أدركت أنَّه يحسب عمري.

تناول اليوميَّة، وجعل يتصفَّح صور مراكب الشركة.

ـ ... الجسور *Bruarfoss*، والجيِّدة *Goðafoss*، والذهب *Gullfoss*، والغابة *Skógafoss*...

أنهى تعداد أسماء المراكب، ثم أعاد اليوميَّة إلى مكانها، مربِّتًا على الحائط حيث كانت معلَّقةً؛ حائطٌ فاصلٌ أقامته الخالة فيفا، فيما مضى، لعزل المطبخ عن الصالون.

ـ هذا الجدار من خشب. تستطيعين نقضه لتستفيدي من حجمٍ أكبر.

أضاف وهو يفتح الباب الزلق الذي يفصل المَرفقيْن:

ـ مطبخٌ أميركيّ.

وضعتُ الفنجانيْن والإبريق على المائدة، وسألته عن أحواله.

جلس، متردِّدًا.

ـ سايديس ليست على ما يرام.

قلت له إنِّي أستطيع توجيهه إلى إحدى زميلاتي، تعمل قابلةً في المنازل، لكنَّه هزَّ رأسَه وهو يحدِّق في المفرش الأبيض المزيَّن بورودٍ زرقاءَ مطرَّزةِ الحواشي.

ـ منذ أن وضعت المولود، صارت عاجزةً عن النوم.

يداعب الورود بأطراف أصابعه.

ـ تظلُّ جالسةً بجانب المهد، تتأمَّل يوليسيس بريكي يتنفَّس، لا تفارقه طيلة الليل.

قلت:

ـ مقلقٌ أن يكون للمرء طفل.

ـ في الصباح، أستلم عنها المشعل، وتجعلني أقسم لها ألّا أغفل عنه، بينما ترتاح هي.

بعد برهة صمتٍ، واصل:

ـ أمس، عانى من الفواق.

ـ طبيعيّ.

أنهى الكهربائيّ فنجانَه. قام واقفًا.

ـ أنا أحثّها على الخروج للتنزُّه.

أرخى وجهه على يديْه.

ـ أمس، خرجَت إلى الحديقة، وكان الثلج يصل حتى ركبتيْها، وجعلت ترفع ذراعيْها إلى السماء.

كرّر:

ـ ترفع ذراعيْها إلى السماء.

ـ حين عادت، اكتفت بأن قالت لي: «ثلجٌ غايةٌ في البرودة، ولا قطرة دم».

هزَّ رأسَه:

ـ إنَّها تتحدّث بالألغاز.

رافقته إلى الباب. في الطريق، جرَّب فواصل الكهرباء.

يُشعل، ويُطفئ.

يُطفئ، ويُشعل.

ـ أنا وأخي، كلانا كهربائيّ. وكذلك والدنا. أمّا أختنا فمدرِّسةٌ، لكنَّها تهيِّء لتجتاز الامتحان الذي يؤهِّلها أن تكون كهربائيَّة. والنتيجة، نحن أربعة كهربائيّين في أسرتنا.

ـ وفي أسرتنا، نحن أربع قابلات.

ـ يمكن أن نقول إنَّنا، أنا وأنت، ننتمي إلى الشعبة نفسها، كلانا نشتغل في مجال النور.

توقَّف عند الباب وضغط على الجرس.

ـ الحقّ، طيلة حياتي وأنا أخشى الظلام.

قال إنَّه لم يشعر قطّ بالطمأنينة في العتمة.

بعد انصرافه، تذكَّرت أنَّه قد تفوَّه بعبارةٍ بدت لي غريبةً: أفضل طريقةٍ لجعل شيءٍ ما خفيًّا، هي حبسه في خزانة.

أبو النور

حين كنت أعيش عند الخالة فيفا، كانت قد كفَّت عن أشغال الخياطة، وصارت تقضي ساعاتٍ طويلةً في مكتبها، تنبش أرشيفها، وفي اليد مكبِّرةٌ. وكانت قد راكمت حشدًا من الوثائق ـ ذلك ما تشهد به رزم الأوراق المكدَّسة في الشقَّة ـ، ظلَّت تفحصُها، وتصنِّفُها، دون أن تغفل تسجيل نقط. كانت تملك آلة كتابةٍ عتيقة، أحيانًا تدسّ فيها ورقةً، فأسمعها، من الصالون تنقر على المفاتيح. كانت أمِّي تظنّ أنَّ الخالة تكتب مذكَّراتها، ولم يجانب ظنُّها الصوابَ تمامَ المجانبة. لقد خلَّفت أمّ الخالة فيفا، أي جدَّةُ أمِّي، وكانت هي أيضًا قابلةً في الشمال، *وهي منطقةٌ من بين الأكثر شساعةً في البلاد*؛ خلَّفتْ مذكَّراتٍ، حرَّرَتها بخطٍّ دقيقٍ، لكنْ شديد الأناقة، مذكَّراتٍ كانت خالة أمِّي قد أوشكت على الفراغ من كتابتِها على الآلة، حين انتقلتُ للعيش معها. طيلة سنواتٍ، بل عقودٍ، قضت عطلات الصيف في الشمال، حيث

سجّلت، على مسجّلٍ يدويٍّ، حواراتٍ مع قابلاتٍ من بنات جيلِها وجيل جدَّة أمّي. المسجّل موضوعٌ على مكتبها، والشرائط مكدَّسةٌ إلى جانبها. وبينما أكون أنا في الصالون، غائصةً في كرّاستي، تتناهى إليّ همساتُ الحوارات التي تسمعها في غرفتها. وقد ألصقت على العلب شرائط لاصقةً، دوّنت على كلٍّ منها اسم القابلة، وعمرَها، ومكان عملها: بلوندوس 95 عامًا، هامستانغي 92 عامًا، ساودركروكر 89 عامًا...

كذلك تقصّت حالة رجلٍ كان ljósfa?ir، أبا نورٍ، أي قابلًا. كثيرًا ما حدَّثتني عنه، قائلةً إنَّه لا بدَّ واحدٌ من أسلافنا. وبحسبها، كانت الظاهرةُ شائعةً في بعض المناطق، حيثُ يُتناقَل التقليدُ من أبٍ لابنٍ، كما يُنتقَل من أمٍ لبنت. فلمّا كان الرجال معتادين أن يولِّدوا بهائمهم، وكذا نساءهم، فقد كان أولئك الرجال يقبلون نساء المزارع القريبةِ، ***إن كانوا يحسنون الصنعة***. كذلك كانت الخالةُ تعرف حالاتٍ يأخذ فيها زوج القابلةِ المشعلَ عنها، إذ تكون هي مشغولةً بالرضاعة بعد أن تُنجب. وحين سألتُها عن غايتها من تلك الأبحاث، قالت إنَّها تسعى إلى أن تجمِّع ما تراكم لديها من حواراتٍ مع القابلات، ومذكّرات أمّها، والمعلومات التي جمعتها، لكي تصنع منها عملًا واحدًا: **مغامرات وتجارب سبع قابلاتٍ، ومولِّدٍ واحد، من الإقليم الشماليّ الغربيّ** ***Norõurland vestra***.

نُورُ نُتفِ العشبِ الأصيلُ

آخرُ مرَّةٍ ذهبت فيها الخالةُ فيفا إلى الشمال، أنا من قدتُ بها السيَّارة. واحدةٌ فقط من محاوِراتِها كانت ما تزال على قيد الحياة، أصغرهنَّ، قابلةٌ متقاعدةٌ سلخت من السنين ستًّا وتسعين، وكانت تعيش في مزرعةٍ يملكها زوج ابنتِها بالتبنِّي. وقد أرادت الخالة فيفا أن تغنم من السفر زيارةً للقابلةِ المذكورة، وأن تسألها اقتيادَها إلى المكان حيث وُلد القابلُ المعلوم.

طالما كانت ما تزال قادرةً على النظر بما يكفي من الوضوح، وحتى حين بدأ بصرُها يضعف، ظلَّت تقصد إلى الشمال، كلّ عامٍ، سائقةً سيَّارتها. اضطررت إلى أن أشدِّد الضغط على مفتاحِ التشغيل كي ينطلق محرِّك اللادا القديمة، وأثناء الطريق، انتبهت إلى أنَّ ماسورة العادم كانت مثقوبة. وحين انهال علينا وابل المطر في ناحية هولتافوردوهيدي، اكتشفت أنَّ أحد مسّاحَي الزجاج الأماميّ لا يعمل. بالكاد أنهيتُ سنتي

الجامعيَّة الأولى، وها أنا ذي قد صرتُ سائقًا خصوصيًا. ولدهشة الجميع، ومخالفةً توقُّع الجميع، كنت قد تسجَّلت في كلِّيَّة اللاهوت، وقد خمَّنتُ على الفور أيّ موضوعٍ تنوي الخالة في أن تطرقَه معي طيلة مسار الرحلة. بينما نجتاز حقل الحمم البركانيَّة Grabrókarhraun، سألتني عمَّا إذا كنت أنوي أن أصير كاهنة.

أجبتُها أنَّني لا أدري بعد.

قالت لي:

- هل تتخيَّلين نفسك تشرفين على تأبين؟ ليس بمستطاع أيٍّ كان تحرير خطابِ تأبين.

مضيفةً أنَّها تعلم من مصدرٍ موثوقٍ أنَّ الكهنة غالبًا ما يتحلَّلون من الواجبات التي لا تقع ضمن مهامِّهم الرسميَّة.

مَثلُ تلك المهامّ، أن ينظِّفوا المذبحَ بالمكنسة الكهربائيَّة، وأن يكسَحوا *لرعيَّتهم* الثلجَ من الرصيف. فضلًا عن أنَّ الرعيَّة ما كانت تحدِّد مواعيدَ لمناقشة أسبقيَّة البدن على الروح، أو الروح على البدن. كنتُ قد تابعت درسيْن تمهيديَّيْن، وتوثَّقتُ حول عالم العبرانيِّين. يمكن القول إذن إنَّني لم أكن حقًّا مسلَّحةً لخوض حديثٍ من ذاك القبيل. أمَّا الخالة فيفا، فكانت قد تهيَّأت له، خير تهيُّؤ، وأحاطت بالنصوص المقدَّسة تمامَ الإحاطة. بديهيٌّ أنَّها كانت تنوي النقاش حول الصراع بين النور والظلمات. بعد حسابٍ تقريبيٍّ، أحصَت في الكتاب المقدَّس نحوَ ثلاثمائة آيةٍ في النور ونحوَ ستِّين في الظلمات. استفاضت في بسط أطروحة *نور العالم، ونور الحياة، والنور الأصيل*. حُدنا عن الطريق الرئيسيَّة،

فانقلب الأسفلت إلى ترابٍ، ثم صادفنا مجدَّدًا قطعةً من أرضٍ مسفلتة تمتدُّ في طريقٍ وعرٍ يغطِّيه الحصى. . وهكذا دواليك. سرنا بمحاذاة بحيرةٍ، وغيومٍ تتوعَّدُ من الساحل، انهال علينا وابل مطرٍ، وتجاوزنا جَرَّارًا. وبعده بقليل، مررنا من أمام قطيع أحصنةٍ، على امتداد طريقٍ تملأها بركٌ مصفرَّة. بلغَت الخالةُ حالًا من الجذب وهي تتأمَّل جمال المهور، ثم ما لبثت أن أعادت بوصلةَ الحديث شطرَ اللاهوت. سألتني عن رأيي في كون الربِّ قد نزل إلى العالم في صورة رضيعٍ لم يحُز بعدُ ملكةَ الكلام.

شارفنا أوَّل مقاصدنا، مزرعةٌ نفضي إليها عبر طريقٍ طويلة، تقود كذلك إلى كنيسة. هناك تقطن آخرُ من تبقَّى، من محاوِراتها، على قيد الحياة. استقبلتنا بالباب، وقدَّمت لنا مقانق سوداء، وهريس البطاطا بالسكَّر. حين دسَّت الخالة فيفا الشريطَ في المسجِّل، تركتُهما لأجلس في الكنيسة الصغيرةِ المسقوفة بصفيحٍ مموَّج، وتزيِّن قبَّتَها سماءٌ زرقاء مرصَّعةٌ بالنجوم. نهايةَ الحوار، خرجت زميلتا المهنة إلى الباحة، وهناك التقطت الخالة صورةً لصديقتها بآلة التصوير بنتاكس العتيقة. لاحقَنا كلبُ المزرعة حتى السيَّارة، وكاد يُسقطُنا. ولمَّا استقرَّ بنا الوضع في سيَّارة اللادا، سألتُها عمَّا دار بينهما من حديث. قالت: عن القابلات وأحلامهنَّ.

تثبُ الطريقُ من فوق أرضٍ براحٍ، ثم تخترقُ واديًا قفرًا، ضيِّقًا مخضرًّا، فيه أرادت الخالة أن تتوقَّف. أسندتُها من ذراعها، وابتعدنا عن السيَّارة، وأخذت تجوس الأرجاء بعينيْها. بين فوضى حزم الأعشاب الكثيفة، تبرزُ تلالٌ بالكاد تفوقُها علوًّا. تلكم

كانت، بحسب الخالة، رسوم المنزل الذي وُلد فيه أبو النور، غيسلي رايموند. رسومٌ تُطلّ على ركام حصى شديد الانحدار. وبينما تنزل هي صوبَ الخرائب، ذهبت آتيها بمصوِّرتها. اغتنمَت الفرصةَ لتطلب منِّي أن آتيها بقلم الشفاه الذي تركته في دُرج السيَّارة. ولمَّا فتحت الدُّرج، وقعتُ على نسخة من الكتاب المقدَّس.

حين ضغطت على زرِّ المصوِّرة، اخترق شعاعٌ من شمسٍ الغيومَ، فأضاء العشب الذي يغزو الخرائب، ثم تلبَّدت السماء مرَّةً أخرى، مبدِّدةً السحرَ. تمدَّدتُ على نبات الخلنج. ولمَّا قمت، كانت أوراق الدرياس ذات البتلات الثمانية قد التصقت بالسترة التي حاكتها لي الخالة فيفا قبَيل سفرنا. وأثناء عودتنا إلى السيَّارة، سألتُها لمَ تحتفظ بالكتاب المقدَّس في دُرج السيَّارة، مثل واعظٍ جوَّال. أجابت أنَّها لا تعرف، وأنَّ الكتاب وصل هناك هكذا. لكي أكون أمينةً في نقل كلامها، قالت إنَّه وصل *صدفةً*.

في طريق العودة، أخبرتني أنَّها، بعد ما قامت به من بحثٍ وتقصٍّ بمعونةِ عالم أنسابٍ، وقفت على أنَّ غيسلي رايموند غودرونارسون، الشهير بالطيِّب، ولدى مقرَّبيه بنونّي، كان من أصولٍ أجنبيَّة، وهو حفيد غيسلي رايموند، المعروف كذلك بلقب نونّي. على ما يبدو، أتت أمّه إلى أيسلندا على متن سفينةٍ تجاريّة، قبل أن تتزوَّج قسًّا. أحيانًا، يتعذَّر عليّ أن أتابع سردَ الخالة: تسلسل الأحداث لا يتَّبع بالضرورة قواعد المنطق، كان لديها ميلٌ بيِّنٌ إلى الاستطراد، وبالتالي لا يمكن أن نقول إنَّ سردها كان خطِّيًا. بالتأكيد، كانت تحكي قصَّةً، لكنَّها كانت تظلُّ

أغلب الوقت عند حواشي الموضوع، فإن طرَقَت صلبَه، إنَّما تطرقُه وجيزًا. وقد قادتها أبحاثُ النسَّابَةِ إلى ما وراء الحدود. وترسَّخ لديها الظنُّ بأنَّها تملك الحجَّة على أنَّ جدَّة رايموند، أي جدَّتنا في المهنة، التي قَدِمَتْ على متن تلك السفينة التجاريَّة، تنحدر من شخصٍ يُدعى باسكال، الفيلسوف الذي كان مهووسًا بالفراغ، ومخترعِ أوَّل آلةٍ حاسبة، أو على الأقلّ، وهذا الراجح، من أحد أفراد عائلته.

ـ أرأيتِ يا صغيرتي ديبّا، ما كنت أتخيَّل أنَّ جذورنا ضاربةٌ إلى هذا العمق.

غير أنَّها كانت متناقضةً فيما يتعلَّق بقرابتنا من أبي النور: أحقًّا يجري دمُ هذا الرجل في عروقنا؟ سرعان ما أدركت أنَّ غاية قصَّتِها بثّ الشكّ، خلقُ الدهشة، كي تسترعي انتباهي حتى نهاية السرد.

وبينما نجاوِز باحة الاستراحة ستادارسكاولي، خلصَت أخيرًا إلى الأهمّ، إلى حجر الزاوية في قصَّتها.

ـ كان قلبُه في الجهة الخطأ.

الحالُ، أنَّها قد اكتشفت، في وثائقَ قديمةٍ، أنَّ أبا النور من الإقليم الشماليّ الغربيّ كان أيمَنَ القلبِ.

الطريق المتعرِّجة

وسط ناحية هولتافوردوهيدي، أرادت أن نتوقَّف لترى هل نضج توت الجبال، نهاية شهر يوليو. ما إنْ شغَّلتُ إشارة الانعطافِ، كي أتوقَّف، حتى استغلَّت سيَّاراتٌ عدَّةٌ الفرصةَ لتُجاوِزنا. ما كادت تبتعدُ بضعةَ أمتارٍ، حتى عادت وفي كفِّها نصفُ حفنةٍ من ثمار الحجريَّة السوداء، اقتسمتها معي. ولمَّا جنحت الشمس إلى المغيب، أُضيئت نوافذ المزارع. وعلى الرَّغم من أنَّنا كنَّا في ساعةٍ متأخِّرة، إلَّا أنَّها فضَّلت أن نسلك في عودتنا طريقَ الذهاب نفسها، أي أن نسير بمحاذاة براح هولتافوردوهيدي، في حين أنَّ النفق الذي دُشِّنَ حديثًا يمنحنا فرقًا معتبرًا. ولأدقِّق القول، لم تكن الخالة تريد أن تنزل 165 مترًا تحت البحر، هناك حيث تسبح الأسماك البيضاء. كانت الجبال والسماء تنعكس في ماء المضيق البحريّ، وأنزلت الخالةُ زجاج النافذة لتنصت إلى غناء الطيور. على حافَّة الطريق، تنتصب

الأعشاب البرِّيَّةُ، عموديًّا، ساكنةً ثابتةً في غيابٍ تامٍّ للريح.

كانت تقول وهي جالسةٌ على المقعد بجانبي، تصغي إلى غناء الطيور:

ـ عزيزي الكركر القطبيّ، محبوبتي الخرشنة القطبيَّة...

وكانت تريد أن نسير على مهلٍ، *أن نمشي بهناءةٍ على هذه الطريق المتعرِّجة*، وكان ذلك ميسَّرًا ما دمنا نركب سيَّارة لادا.

وبينما نجتاز رأسَ هفيتانِس، قدمايَ عاريتان في حذائي الرياضيّ الأصفر، انتابني الانطباع بأنَّني قد عشتُ هذا المشهد من قبل، أنَّني انخرطت في هذه المحادثة، وسمعت العبارة نفسَها، في المكان نفسه بالضبط، حيث يحوطنا الحصى:

ـ بلى، إنَّنا نسير الهوينا على هذه الطريق المتعرِّجة يا صغيرتي دييّا.

وكنت أعرف أنَّها ستقول بعدها: *كلُّ سفرٍ ينطوي على سفرٍ آخر.*

ركامٌ من ضبابٍ يطفو على ساحل كيوسن، فيحجبُ تارةً الجزر والصخور، وطورًا يكشف عنها.

أثناء مسارنا نحو ريكيافيك، اضطررتُ إلى التوقُّف مرَّتيْن لملء مبرِّد السيَّارة بالماء، وبعد عودتنا بمدَّةٍ يسيرةٍ أُخذت السيَّارة إلى مستودع الخردة.

وفي الخريف التالي، تخلَّيت عن دراسة اللَّاهوت، والتحقت بمعهد القابلات. دُهشت أسرتي لاختياري الجديد، كما دُهشت لاختياري الأوَّل، باستثناء الخالة فيفا.

ـ لديك يدان كأيدي جدّاتنا، يدان وُجدتا لممارسة هذا العمل.

تلك الأيادي، تذكرها جدَّة أمّي أيضًا في مذكّراتها، حيث كتبت: *أبذل جهدي في الحفاظ على يديّ، حتى وإن اعتُبرتُ امرأةً كسولًا، متبلِّدة.*

زقاق سولهايمر ـ زقاق ليوشفالاغاتا

على الرفِّ الأسفل من المكتبة، صُفَّت أربعةُ ألبوماتٍ ذوات أغلفةٍ ملوَّنة، ثلاثةٌ مزيَّنةٌ برسوم نباتٍ، وواحدٌ برسوم جِراء. تحوي هذه الألبومات كمًّا من صورنا أنا وأختي، في مختلف مراحل عمريْنا، نلبس فساتين صنعتها لنا الخالة؛ وثمَّة صورٌ أخرى كثيرةٌ لي وحدي، صورٌ لي وأنا صغيرةٌ جدًّا، بين ذراعيْها، أثناء زيارةٍ لها في شقَّتها بزقاق ليوشفالاغاتا، وأخرى أثناء المناولة، وثالثة بزيّ طالبة بكالوريا. وفي إحداها، تراني مبتسمةً أعرضُ أوَّل مولودٍ استقبلَه العالمُ على يديَّ. وهناك أيضًا صورنا أثناء الوجبات العائليَّة، صورٌ تجمع الأختيْن، وجدَّتهما، وخالةُ أمّهما، جالستيْن جنبًا إلى جنبٍ، لهما لون الشعرِ نفسه، والتسريحة نفسها. كلَّما تقدَّم بهما العمر، زاد الشبه بينهما. جدَّتي ماتت قبل عشر سنواتٍ من موت الخالة فيفا. وبعد أن فقدت جدَّتي زوجها، كثيرًا ما كان والداي يبعثان بي لآتي بهما ـ الجدَّة

والخالة ـ معًا من منزليْهما، تواليًا في زقاق سولهايمر وزقاق ليوشفالاغاتا، لتحضرا معنا اجتماعات العائلة في بولستدارثيد. ثم أُعيدهما إلى منزليْهما على مسار الذهاب نفسه. كلتاهما كانت تسكن في عمارةٍ، بالطابق الثالث. أمرّ على كلِّ شقَّةٍ من الشقَّتيْن، لا أزيد على أن أدخل وأخرج، أقصد الأولى، أتأبَّط ذراعها حتى السيَّارة، أساعدها على خلع معطفها، ثم أقصد إلى الثانية. بعض الصور تعود إلى زمان شباب الخالة. في إحداها، تضحك ـ وفي يدها سيجارة، ووجهُها يبدو شيئًا ما مبهمًا بسبب تماوجات الدخان. في كلمة التأبين التي نُشرت عند وفاتها، وصفتها إحدى زميلاتها ***بالمواطنة العالميَّة***، وإن لم تكن قد غادرت البلد سوى مرَّةٍ واحدة.

أحد الألبومات مخصَّصٌ لصور الرضَّع التي توصَّلت إليها الخالة فيفا، غالبًا مصحوبةً ببطاقة أعياد ميلاد. تشهد الصور بمدى دُربة عيْنِ الوالديْن على التصوير، وكذا بمدى جودة آلات التصوير، كما تثبت أنَّ الخالة كانت حريصةً على أن تهديَ كلّ طفلٍ تقبَلُه كنزةً من حياكة يديْها. أقلِّب صفحاتٍ وصفحاتٍ، أتأمَّل صور الرُضَّع وملابسَهم. . الحقُّ أنَّ الأمر أشبَه شيءٍ بدليل خياطة، أو مجلَّةِ تريكو! حتى إنَّها دوَّنت، في غير ما موضعٍ، رقم الإبر وجودة الصوف المستعمل. وفي آخر الصفحات، نعثر على الصور التي التقطتُها أثناء سفرنا على متن سيَّارتها اللادا. أغلبُها صورٌ للخالة، غير أنَّ واحدةً منها تتميَّز عن البقيَّةِ، سواء من حيث الموضوع ـ صورة كلبٍ منتصب الأذنيْن، ملتوي الذيل ـ أو من حيث غرابة زاوية الالتقاط، من أعلى إلى أسفل، بحيث

يبدو الحيوان كأنَّما عُدِم القوائم. زِدْ على أنَّ الصورة مبهمة. أتذكَّر أنَّ الكلب كان يزعجني، إذ ما انفكّ يقصدني ليتشمَّمني، وعندما عدتُ بالسيَّارة إلى الخلف، أمام المزرعة، قبل أن أغادر، نبحَ عليّ. تحت الصورة، كتبت الخالة فيفا تعليقًا:

ساومر كان فريدًا من نوعه، مهذَّبًا وميَّالًا إلى الانعزال. بوركت ذكراه.

أَفي هذا البلد نورٌ؟

قبيل عودتنا إلى ريكيافيك، اقترحتُ على الخالة شراء حاسوبٍ، ووعدتُها أن أعلّمها كيف تستخدمه. ولمّا كان بصرها قد بدأ يتقهقر، فقد علّمتُها كيف تكبّر الحروفَ. بدا لها خارقًا إمكان أن تصحّح الحوارات على الشاشة، من غير أن تضطرَّ إلى إعادة نسخ النصّ كلّه عدّة مرّاتٍ. هكذا ألفينا نفسيْنا جالستيْن معًا أمام الحاسوب. وظلّت تستدعيني كلّما تمنّع عليها شيء. أحيانًا، تقول إنّها ضغطت على زرٍّ من الأزرار، بغير قصدٍ، فتحوّلت الشاشة كلّها إلى سوادٍ؛ أو أحيانًا يختفي بغتةً الملفُّ الذي تشتغل عليه، لكنْ لا بأس، لأنَّ النصّ، على ما تقول، غير ذي شأن. وقد شهدنا ما هو أفظع. أو أحيانًا، تكبُّرُ الحروفَ حتى يغطّي الصفحةَ كلّها حرفٌ واحدٌ لا غير، حرفُ J هائل. والصفحة التالية يحتلّها حرفُ A، والتي بعدها حرفُ R، ثم تمتدّ على الصفحات الستّ التاليةِ بقيّةُ حروف Jarpuóur، وهو اسمُ إحدى

محاوِراتِها. عرضتُ عليها، في نهاية المطاف، حين حلَّت عطلة نهاية الأسبوع، أن أعاونَها في نسخ مذكَّرات جدَّة أمِّي، والحوارات المسجَّلة على الأشرطة. تلكم هي المناسبة التي سمحت لي بأن أكتشف أنَّ كتاب ***مغامرات وتجارب سبع قابلاتٍ ومولِّد من الإقليم الشماليّ الغربيّ***، لا يتحدَّث عن القابلات والوِلاداتِ إلَّا قليلًا، بل هو في المقام الأوَّل سردٌ لرحلاتها الاستكشافيَّة، ووصوفٌ مناخيَّةٌ أو حيوانيَّة.

تقول شارحةً بقلمِها الأنيق: ***لقد رغبتُ في أن أُسافر، وأرى العالم. فكان أن انطلقت إلى ريكيافيك، كي أصير قابلةً. دامت الدراسة ثلاثة أشهرٍ، وغنمتُ المناسبة في أن أتعلَّم دروس رقصٍ.***

القابلات اللواتي حاورتهنَّ خالةُ أمِّي، أثناء عُطَلِ الصيف ابتداء من سنة 1970، على امتداد ربع قرنٍ من الزمان، أغلبهنَّ من جيل أمِّي. ولمَّا كنَّا قد وُلدن نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، فقد كنَّ جميعًا يقصدن إلى المواخض على أقدامهنَّ أو على ظهر جواد. وكما قالت إحداهنَّ، ***آنذاك كان للقابلة أن تغنمَ التجوال ورؤية العالم.***

جلُّ تلك النصوص تصف الصعوبات التي كانت تعترض القابلة في تنقُّلها أثناء العواصف الشتويَّة. كان يرافق القابلة في سيرها إلى الماخض فتًى متينٌ، لكنَّ هذا الفتى، بحسب شهادات القابلات، كثيرًا ما كان يتخلَّى عن مواصلة المسير، فزَعًا من ظلام الليل أو تعبًا. فتُواصل القابلة طريقَها بمفردها، تائهةً في العاصفة الشتويَّة، سائرةً بحذرٍ تتلمَّس طريقها، متعثِّرةً بصخرةٍ، غائصةً في الثلج حتى الخصر، عابرةً واديًا أو مخترقةً صدعًا،

قاطعةً نهرًا جافًا، مجاوِزةً عوائق شكَّلها الجليدُ، مفلتةً بالكاد من انهيارٍ جليديٍّ، ثم إذ تدرك وجهَتَها، وتتخفَّف من كمٍّ الشالات التي عقدتها حول عنقها، تلفي الوليدَ قد خرج إلى العالم، حيًّا أو ميّتًا، ***لأنَّ امرأةً ماخضًا لا تأبه بمعرفة ما إذا كان الطقس مناسبًا للسفر أم غير مناسب.***

نسختُ صفحاتٍ وصفحاتٍ من الظلمات التي تنسكب على العالم، صفحاتٍ من الليل السرمديّ حيث لا ترى الواحدةُ من تلك النساء أبعدَ من أنفها. صفحاتٍ يصفن فيها عالمًا يُختزَل في جدارٍ منيع، هاويةٍ مدوِّخة، جرفٍ حادٍّ يقابلهنَّ عند كلّ خطوةٍ؛ يحاولن التعبير عمَّا تشعر به الواحدة منهنَّ حين يختفي عن بصرها ذاكَ الذي يفترض أنَّه أتى يرافقها ويحميها، حين تضطرُّ إلى التفتيش في العتمة، متلمِّسةً بأطراف أصابعها الفراغ. لا سبيل لديهنَّ لمعرفة ما تكتنفه الظلمات، يجهلن مبتداها من منتهاها، والليل عامرٌ بشتَّى ضروب الأصوات، ثمَّة صوت هجوم الريح، وثمَّة أيضًا أصواتٌ أخرى يتمنَّيْن لو صمتت، أو على الأقلِّ لو غفلن عنها؛ الليلُ يعجّ بالقصص، إنَّه مملكة الخيال، وليس ثمَّة غير السواد، ومن بعده سوادٌ بعدَه سوادٌ. تسرّ إحداهنَّ: ***لطالما أرعبني الليل.*** وهنا وهناك، تُضيف الخالة فيفا بضع ملاحظاتٍ أو شروح: ***من لم يسافر على قدميْه شتاءً، لا يعرف الليلَ حقَّ المعرفة. ثم تتساءل: أَفي هذا البلد نور؟ أَفي هذا العالم نور؟***

بعض الألفاظ التي تتوسَّل بها تلك النساء في وصف الطقس قد صارت اليوم في حُكم المهمَلِ. كثيرًا ما اضطررتُ إلى الضغط على زرِّ التوقيف، والرجوع بالشريط إلى الخلف حتى أسمع مرَّةً

أخرى الكلمات التي تصف مختلف ضروب العواصف الشتويَّة التي تعمي الأبصار، أو الضباب الذي من شدَّة كثافته يمكن أن يُقطَّعَ بالسكِّين. آنذاك، كانت أختي تدرس علوم الطقس في جامعة لوند، في السويد، وقد بعثتُ إليها بقوائم ببعض تلك التسميات.

للحديث عن الضباب:

bryla

brækja

dumba

móõa

móska

mugga

skodda

sorti

وللثلج:

skari

áfreõi

broti

kafaldi

kafaldshjastur

bleytuslag

moldél

kalsanæõingur

snjóbörlingur

kaskahríõ

lenjuhríõ

blotahríõ

fukt

neõanbylur

skafald

skafkafald

drift

fjúkburõur

fylingur

skafbylur

skafhríõ

skafmold

skafningur

bleytukafald

slyttingur

وكان يحدث، وإن ندَر، أن تسافر تلك النساء في ليالٍ شتويَّةٍ
رائقة. إذَّاك يشيع شيءٌ من الأمل، لقد هدأت العاصفة كاشفةً،

في سماء الليل، عن أشفاقَ أشدّ وهجًا من الشمس.

خاضت جدَّة أمِّي سفرًا من تلك الأسفار، وبطنها تكاد تحجب عنها البصرَ، إذ كانت حاملًا بثامنِ أطفالها. وفي طريق عودتها، بعد أن ساعدت ماخضًا، كانت الريح قد سكنت، لا يهبُّ منها نفَسٌ، والثلج قد تحوَّل إلى جليد، وفي قبَّة السماء تلتمع ملايين النجوم. تصف في مذكَّراتها عالمًا تحوَّل إلى مسرح ظِلالٍ من المرايا المتوهِّجة تحت شمسٍ مشعَّة. كتبَت: ***عدتُ إلى داري منزلقةً على الثلج الذي قسا من شدَّة البرد***، واصفةً البلُّور المتلألئ الذي ***يعكس كلّ الضوء الذي قد ينطوي عليه نهارٌ شتويّ***. وكانت تلك مناسبةً لتتساءل عمَّا إذا كان الإنسان قوامُه النجوم. هكذا ينتهي المقطع ذاك من مذكَّراتها: ***في خلال المساء، أنجبتُ طفلةً معافاة.***

حين فرغت من نسخ ذلك الفصل، قالت الخالة فيفا:

ـ تلك الطفلة هي أنا.

ثم فجأةً، ينقلب الأمر إلى الحديث عن الصيف بلياليه الصافية، حيث تخمد صيحات الريح. وحيث لا يصير البلد إلَّا مروجًا وخرير جداول. في مقدِّمةٍ طويلةٍ لمذكَّراتها، تصف جدَّة أمِّي سفرًا من أسفارها. حملَت معها محفظةً تحوي ملاقط وشيئًا من كافور، ومضت في تلك الفترة من السنة حيث يجمد الطقس فاسحًا المجال لشهريْن من الأبديَّة. خارجةً من ليل الشتاء، كانت جدَّتي تسير أخيرًا صوب الشمس، صوب النور الذي لا يصمد فيه أيّ ظلٍّ. ***لمَّا رفعتُ عينيَّ إلى أعلى الوادي، أبصرت فجوةً في***

السحب، لقد اخترقت أشعَّة الشمس الهواء الضبابيّ، فارتاع قلبي، تحت شالاتي، أمام ذاك الجمال. ثم تمضي واصفةً أرضًا انقلبت بساطًا ناعمًا مخضرًّا، تذكُر نباتاتِ إكليليَّة المروج التي ترتفع حتى الوركيْن، ورذاذَ الشلّالات. *استلقيْت على بطني عند حافَّة الجدول، بلَّلت شفتيَّ في الماء حيث تسبح سمكة سلمون رقطاء، ثم جلست على ضفَّةِ الجدول أتأمَّل انعكاسي يتَّحد بالجدول، ثم يمضي معه. نفسي منشرحةٌ نفَّاذةٌ، كالدّبال في فصل الربيع.* ثم تكرِّس صفحةً بأكملها، وقد هَدْهَدَها طنينُ الذباب، لوصف أشعَّة الشمس التي تنحلُّ في الماء الشفيف إلى ألفِ لونٍ ولون.

حملت معي صنَّارتي، كانت الغيوم تسبح في الجدول.

وتنهي أمُّ الأطفال الثمانية ليلَها الصيفيَّ على هذا النحو: *تلك الليلة لم أكن أنتمي لأحدٍ، وأدركتُ أنَّ لحياتي هدفًا.* قلبتُ الصفحةَ. في أعلى الصفحة التالية، دوَّنَتْ بخطِّها الأنيق: **كيف أساعد الناس في ألَّا ينجبوا مزيدًا من الأطفال؟ علَّمتُهم ما علِمتُ. لكنْ سدًى! ما كاد ينقضي الحوْلُ حتى دعيتُ مرَّةً أخرى لتوليد امرأةٍ في المزرعة نفسها.**

وإن كانت لا تكاد تفصح عن تفاصيل المخاض وآلام المواخض، عاجزةً عن إراحتهنَّ، إلَّا أنَّ بعضًا من التأمُّلات تنفلت منها، وتَنبَثُّ هنا وهناك، في ثنايا سردها ووصفها للطبيعة.

كتبت جدَّةُ أمِّي: *لو أنِّي وُلِدت فتًى لكان بمقدوري أن أصير طبيبًا وأنقذ حياة أولئك المواخض اللواتي تهلكهنَّ حمَّى النفاس.*

ثم إنَّها، مثل زميلاتها، تعرِض لذِكر الحيوانات؛ فتكتب واصفةً

ميولَها: طفلةً، كنت شغوفًا بإنجاب إناث الحيوان. جرت العادةُ أن ندفن الأجنَّة في مشيمتها، فكنتُ أفتِّش عن مشيمات النعاج المقتولة، فأتأمَّل السائل الشفيف الذي يسبح فيه نسلُها. أكثر ما كان يدهشني هو أنَّ الحملان تخرج من أرحام النعاج، أوَّلَ ما تخرُج، بقوائمها، أمَّا أطفال البشر فيخرجون برؤوسهم وأذرعهم لصيقةٌ بأجسادهم.

يحظى الغنم بمكانةٍ بارزة، فتصرِّح امرأةٌ:

أحبّ الحيوانات، لا سيَّما منها خرافُنا الأيسلنديَّة.

وتقول أخرى: **مع حفظ الفروق، فإنَّ الخرفان أعلى مرتبةً من البشر.**

وتؤكِّد ثالثة: **إنَّ الخروفَ للإنسان خيرُ رفيق.**

وتقول رابعة: **مزاج الخروف الأيسلنديّ أَمْيَل إلى العناد.**

على أنَّني اكتشفت، بينما أقارن بين الحوارات التي دوَّنتها الخالة فيفا انطلاقًا من الشرائط، وبين أقوال النساء الأصليَّة، أنَّ الخالةَ لم تكتفِ بتوجيههنَّ، عبر الأسئلة، إلى المواضيع التي تهمّها، كالحيوانات وعالم الحيوان، بل أَوَّلت عمدًا إجاباتهنَّ وحرَّفَتها. غير أنَّ هذا لا يمنع من أنَّ الدفاتر تبيِّن أنَّ الأمّ والبنت يتشاركان الشغف نفسَه بالحيوانات.

تروي جدَّة أمِّي، في موضعٍ ما، ذكريات طفولتها، عن جنوح الحيتان، وعن نفاد صبرها وهي تتابع تقطيع الحوتيَّات وتقاسم لحومِها. ***إن حالفني الحظُّ، يكون الحوت الجانح أنثى حاملًا. وأروَع لحظةٍ هي تلك التي يُشقّ فيها بطنُها، فيُستخرج منه الحوت***

الصغير. ولم نكن نأكله. تعرض بالحديث كذلك للطيور. في طريقها إلى مزرعةٍ من المزارع، أو عند عودتها إلى منزلها، بعد توليدِ ماخضٍ، كانت تسمع زقزقة جاثم من الجواثم، ها قد حلّ القطقاط الذهبيّ بأيسلندا إيذانًا بحلول الربيع. تصف كذلك وضعيَّة البيض في عشٍّ. ذات يومٍ لمحَت بومًا، وفي يومٍ آخر أبصَرت بازًا يحلِّق.

كذلك نعثر في دفاترها على ما يشذّ عن المألوف، نظيرَ الغربان البيض أو الحيوانات الشائهة. كتبَت: *كنتُ أهتمّ، على نحوٍ خاصٍّ، بما يعتبره الناس انحرافات. وما لبث هذا الاهتمام أن انتشر في المنطقة، فصاروا إلى استدعائي كلَّما وُلد حمَلٌ برأسيْن، أو بخمس قوائم*. تبعًا لذلك، قرَّرت الخالة فيفا أن تعنونِ أحد فصول كتابها: *تشوّهات*. حتى إنَّها، بالنظر إلى الملاحظة التي دوَّنتها في الحاشية، قد فكَّرَت لوهلةٍ في أن تعنون الكتاب: *مغامرات قابلاتٍ يواجهن تشوُّهات الطبيعةِ ومملكةِ الحيوان في أيسلندا*. وكما يبدو من العنوان، فإنَّ التشوُّهات، أو الخارقَ، لا تقتصر على الحيوانات، بل تتعدَّاها إلى ظواهر الطبيعة كلّها. تعرض جدَّة أمِّي، في آنٍ، إلى كسوف الشمس وخسوف القمر. تذكر امرأةٌ أنَّها شهدت قوسَي قزحٍ في آنٍ واحدٍ؛ وتزعم أخرى أنَّها رأت إوزًّا وبجعًا يطير معًا في شكل «V» صوب البرّ، وتفترض أنَّ البجعات قد اختلطت بالإوزّ لتسهُل عليها الهجرة؛ وأخرى غيرهنَّ تتحدَّث عن شكل الغيوم العجيب، قائلةً إنَّها ترسمُ *في السماء ما يشبه الحلمات*، لذلك عمَّدَتها باسم *الغيوم ـ الأثداء*.

المرّات النادرة التي يتمّ فيها التطرُّق لموضوع الولادة نفسه، أو المواليد، ليست سوى مناسباتٍ لذكر الغريب والشاذّ. تذكر حالة طفلٍ ***أُذناه في موضعٍ منخفضٍ جدًّا من جمجمته، وبين الإبهام والسبَّابة مسافة أقلّ من المسافة بين بقيَّة الأصابع***. إحدى القابلات تعرض، بقولٍ شبه مكشوفٍ، لحالة توأمَيْن سياميَّيْن وُلدا بعد مخاضٍ عسير، وماتا كلاهما. تضيف: ***لكنَّني قطعت عهدًا ألّا أتحدَّث عنهما أبدًا***.

خطَّطت خالة أمِّي لأن تُطلق على أحد الفصول عنوان ***في الغريزة الأموميَّة***. وفيه، كما في غيره، يختلط رأيُها الشخصيّ بآراء القابلات الأخريات. استنتجتُ أنّها إنَّما تكتب، في الحقيقة، عن نفسها، وأنَّ الحوارات مع زميلاتها السبع المسنَّات إنَّما هي مونولوجات، وأنَّ قصَّتهنَّ قصَّتُها وقد نُقلت إلى زمنٍ ومكانٍ آخريْن، ولا يشذّ فصلُ الغريزة الأموميَّة عن القاعدة. صحيحٌ أنَّ جدَّة أمِّي قد أنجبت من الأطفال عشرةً، لكنَّني أنبِّه إلى أنّ معظم النساء المستجوَبات كنَّ، كالخالة فيفا، غير متزوِّجاتٍ ولا أمَّهات. هكذا يبدأ الفصل المذكور: ***ليس القصدُ من الحياة التكاثر***. وفضلًا عن ضربٍ من المقدِّمة، تضيف إلى كلِّ فصلٍ خلاصةً تورد فيها قبسات من الحوارات. تعلن إحدى محاوِراتها: ***لم أجد في نفسي ذرَّةً من غريزة الأمومة***. وتضيف الخالة: ***ليست كلّ النساء راغباتٍ في الأمومة***.

لاحظت في عائلتي نموذجًا متكرِّرًا: نساءٌ كثيرات ظللن ينجبن حتى سنٍّ متقدِّمة. جدَّة أمِّي مثلًا، كانت في الحادية والخمسين حيت أنجبت طفلها العاشر (التسعة الذين وُلدوا قبلَه،

وُلدوا جميعًا في شهر مايو). وما أثار دهشة الجميع هو حالة خالتي التي أنجبت طفلها الأوَّل والوحيد بعدما بلغت السابعة والأربعين من العمر.

في التسعين من عمرها، اشترت الخالة فيفا حاسوبًا محمولًا، ولشدّ ما عظُم إعجابُها حين بيَّنت لها إمكان تغيير صورة الخلفيَّة. ظلَّت متردِّدةً طويلًا بين صورة فجرٍ أو صورة غروب، وفيهما السماءُ داميةً، ثم استقرَّ قرارُها على الفجر. وحتى بعد أن صارت تملك حاسوبيْن، لم تتخلَّ تمامًا عن استعمال آلتها الكاتبة.

غير أنَّ *مغامرات وتجارب سبع قابلاتٍ، ومولِّدٍ واحد، من الإقليم الشماليّ الغربيّ*، ظلَّ مخطوطًا غير مكتملٍ، لأنَّ مهمَّةً أخرى عرضت للخالة، مشروعًا جديدًا لاح لها، وما لبث أن استولى على عقلِها واستحوذ على وقتِها.

40 °C

الساعة توشك أن تبلغ الحادية عشرة، والسائح المقيم في الشقَّة تحت العلِّيَّة، أتاني لابسًا كنزةً، يعتذر عن الإزعاج. متأبِّطًا شراشف السرير، قال لي إنَّه قد نزل إلى المغسل المشترك، وحاول أن يجد الغسَّالة الخاصَّة بالشقَّة حيث يُقيم. فقد أخلى له مستأجرُ الشقَّةِ رفًّا وثلاث شمَّاعات ملابس، لكنَّه أغفل تغيير ملاءات السرير. بيَّن لي السائح أنَّه بحث عن غطاء سريرٍ وملاءةٍ نظيفيْن، لكنَّه لم يجد، فافترض أنَّ صاحب المسكن لا يملك غير طقمَي سرير، واحدٌ على السرير وآخر في سلَّة الغسيل.

انتعلت حذائي. وبينما ننزل إلى المغسل، أخبرني أنَّ ابنَه كان يُفترض أن يصحبَه.

ـ كان يفترض بالرحلة أن تكون رحلة رجلَيْن، لكنَّ الولَد غيَّر رأيَه وقرَّر قضاء أعياد الميلاد عند أمّه.

سألته عن سنِّه، فقال إنَّه في السادسة عشرة.

ـ لم يعد يرغب في أن يستقلّ طائرةً، يقول إنَّ البشريَّة جمعاءَ تتنفَّس الهواءَ نفسَه.

واصل:

ـ صرنا ننتقل بغتةً من الشتاء إلى الصيف. فيما مضى، كان الربيع يستمرّ أسابيعَ، واليومَ لا يكاد يتجاوز يومًا واحدًا. تنبثق الزنابق من الأرض صباحًا، ولا تكاد تبلغ الليل حتى تفنى. ثم يطغى الحرّ.

بيَّنت له كيف تعمل الغسَّالة.

أخبرني أنَّه كان ينوي الذهاب إلى مكانٍ آخر، ثم قرَّر في آخر لحظةٍ القدومَ إلى هنا.

قال:

ـ لم أكن أنوي أن أتوغَّلَ شمالًا إلى هذا الحدّ، ثم غيَّرتُ رأيي.

لم يقل لي: إنَّني قد جُبت العالمَ، شرقًا وغربًا، ولم أجد بعدُ أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا[1].

كان ينوي، أوَّل الأمر، أن ينزل في فندق، ثم فكَّر في أنَّ شقَّةً ستكون أكثر حميميَّة. صدفةً، وجد نفسَه في هذه العلِّيَّة، فقد اختار شقَّةً أخرى غيرها، لكنَّ صاحبَها ألغى الحجز في آخر لحظة.

قلت:

(1) سفر الخروج: 8 : 3.

ـ إن كان غسيلُك كلّه أبيضَ، فبَرمِج الغسَّالةَ على 80، أمَّا إن كان ملوَّنًا فبرمِجها على 40.

واقفًا إلى جانبي، كان يتأمَّلني أصبّ سائل الغسيل في موضعه، ثم أضبط الحرارة والمدَّة. يبدو أنَّ لديه في المنزل غسَّالةً من الماركة نفسها، بوش.

سألتُه عمَّا ينوي القيام به من أنشطةٍ خلال هذه العطلة، فأجابني أنَّه أتى إلى هنا ليجترَّ.

أدهشني الفعل الذي استعمله: اجترّ.

ثم تذكَّرتُ أنَّني قد وضعت في الغسَّالة ملابسَ منذ يوميْن ولم أنشرها بعد. فتحت الآلةَ، وأخرجت منها تي ـ شرت. فرَدتُه وعلَّقته على الحبل بملاقط غسيل. يحمل التي ـ شرت لوغو البنك الذي موَّلَ ماراثونًا شاركتُ فيه، يهدف إلى جمع المال لشراء جهاز قياس التأكسُج لفائدة المواليد الخدّج في حضَّانات المصحَّة.

أخرجت من الآلة تي ـ شرتاتٍ أخرى، وتردَّدتُ في إخراج الملابس الداخليَّة.

صعدنا من القبو. اقترحتُ عليه أن أعيره ملاءات.

ابتسَم لي ممتنًّا، وانتظرني على صعيد الطابق، بينما دخلت سريعًا إلى بيتي، آتيه بملاءةٍ وغطاء سريرٍ من إرث جدَّتي، من دمقسٍ أبيض يزيِّنه وشيُ ميداليَّةٍ.

لم أستطع أن أكبح نفسي عن سؤاله عمَّا إذا كان قد حضر ولادة ابنه.

ـ نعم.

ـ فهل بكى؟

ـ بكاءً شديدًا.

قلت له إنَّ الحيتان كالبشر تلجأ إلى قابلات.

قال:

ـ أفهم.

ليس من السهل تخمين ما يدور في رأسه، لكنْ يبدو لي أنَّه يفكِّر.

سألني عمَّا إذا كنت مختصَّةً في الحيتان.

قلت:

ـ كلَّا، أنا قابلة.

ـ وكم طفلًا قبلتِ؟

لم أكن أحتاج أن أفكِّر طويلًا لكي أجيبَه، لأنَّني أمس فقط قمت بحساباتي.

ـ يوم الجمعة أبصر النور على يديَّ الرضيع رقم 1922.

لا شيء تغيَّر

تناولت من مكتبتي سيرة ماري سيكول التي نشرتها سنة 1857 تحت عنوان *Wonderful Adventures of Mrs. Seacole in Many Lands*، وحملتُها معي إلى السرير.

أقضي ساعاتٍ طوالًا بجانب المواخض، فإن تأخَّر الطَّلقُ أغوصُ في كتابٍ. في الغالب الأعمّ ديوان شعر. فإنْ سألتني الماخضُ عن عنوانه، أريتُها الغلافَ. يحدث أن تطلب منِّي أن أقرأ لها بصوتٍ مرتفعٍ، فأجيبُها إلى ما طلبَت. ذات يومٍ، استدعتني رئيستي. اشتكى لها زوجُ ماخضٍ من أنَّني قرأت لزوجته قصيدةً تصف ألمَ فقدان طفل.

أجبتُها:

ـ ربَّما هي قصيدةٌ لآنا أخماتوفا. لقد فقدَت ابنَها أثناء حملات التطهير الستالينيَّة. كثيرٌ من النساء يواسيهنَّ أن يعرفنَ أنَّهنَّ لسنَ الوحيدات اللواتي يألَمنَ.

وإذ أرجعت التفكيرَ، تذكَّرت أنَّ ماخضًا طلبت منِّي صراحةً أن أقرأ لها قصيدةً عن الموت.

سألتُها إراحةً لضميري:

ـ هل أنت متأكِّدة؟

ـ على يقين.

فقرأتُ:

الموتُ ليس شيئًا يُذكَر

حدثٌ بلا شأنٍ

إنَّما انتقلتُ فقط إلى الغرفة المجاورة

ولا شيءَ تغيَّر

وإذ أسترجِع الحدث، أقول لنفسي إنَّني كنت أستطيع أن أجيب رئيستي بأنَّ في قلب معظم القصائد توجدُ الوحدةُ وتهافتُ الحياة. أسترجع كلام خالة أمِّي، واقفةً عند النافذة وفي يدِها فنجان القهوة، ***يأتي الإنسانُ إلى العالم عاريًا كدودة، ويبحث لوجوده عن معنى.*** أضع الكتاب على طاولة السرير، وأسحب خيط المصباح فينطفئ. تهتزّ خيوط مصباح السرير المزيَّنة بحبَّات الزجاج.

أيُّها الليل، أنا أنتظرك.

ثم ليأتِ النور.

II

زوولوجيا للمبتدئين

يُنجِبن بمشقَّةٍ على قبرٍ

صامويل بيكيت

أصعب الأمور اعتيادُ النّور

أستجلي الأفقَ باحثةً عن شعاع ضوءٍ على نافذتي. ما يزال الليلُ الأسودُ مخيِّمًا. أضع الخبز في المحمصة، وأشغِّل المذياع. أقع على حوارٍ مع رجلٍ يشرح كيف أنَّ الثقوب السوداءَ مناطقُ تمتصّ كلَّ نورٍ وكلَّ مادَّةٍ، وتمنع كلَّ ما تمتصّه من الخروج مرَّةً أخرى. يقول إنَّه سلوكٌ من الغرابة بحيث يضع موضع مساءلةٍ كلّ المفاهيم والتصوُّرات المتَّفق عليها علميًّا. إنَّها تقوّض كلّ شيءٍ، حتى مفاهيم الزمان والمكان كما نعرفهما.

أفرَغُ من شرب قهوتي، وأُغلقُ المذياع.

في عمق الدولاب، حيث تعلِّقُ الخالة فيفا فساتينها، تحتفظُ بعلبة كرتونٍ كبيرةٍ عليها شعارُ موز تشيكيتا. وعلى معرفتي بأنَّها مليئةٌ بشتَّى الوثائق، إلَّا أنَّني تراخيْت عن فتحها واستكشاف محتواها. في إحدى المرَّات الأخيرة التي زرتها فيها، ربَّتت على ظهري قائلةً:

ـ أعوِّل عليك في العناية بعلبتي.

آنذاك، لم أفهم حقًّا ما ترمي إليه.

لم أفتح العلبة إلَّا بعد وفاتها.

في الأعلى، ظَرفٌ سميكٌ من ورق الكرافت، يحوي مخطوطًا مكتوبًا على الآلة، من أكثر من مائتيْ صفحة. على أولى الصفحات اسماها الشخصيّ والعائليّ، والعنوان بحروفٍ كبيرة: **حياة حيوانيَّة**، وبحروفٍ صغيرةٍ العنوان الجانبيّ: **بحثٌ في سلوكات الحيوان البشريّ**. وكان يكفي أن أتصفَّح المخطوط ليرتفع عندي أيّ شكّ، إنَّه بالفعل مخطوط كتاب. يُستفتَح الكتابُ باستهلالٍ، تُقدِّم فيه الخالةُ نفسَها. **على يدي أتى إلى العالم أطفالٌ، في أطوَلِ أيَّام السنة وفي أقصَرِها، وحين كانت الشمس في أعلى نقطةٍ من السماء، وفي أدنى نقطة، والحصيلة 5077 وليدًا، 2666 أولادٌ، و2411 بناتٌ. لهم جميعًا حكتُ ملابس: قبّعة أو كنزة، وأيضًا سراويل وتبَّانات. أغلبها كانت صفراء وخضراء، بلون الشمس والعشب اليانع. عامَّةً، كنت أعُدّ ثلاث إلى أربع كبَّاتٍ من الصوف لكلِّ طفل.**

ينتهي الاستهلال على النحو: **يُقال إنَّ الإنسان لا يُشفى أبدًا من ولادته. إنَّ أقسى تجارب الحياة، هي أن يولد المرء. ويأتي في المرتبة بعدها، من حيث الصعوبة، اعتياد النور.**

ما لبثتُ أن اكتشفتُ، وأنا أقلِّب في العلبة، أنَّ ثمَّة مخطوطيْن آخريْن. دُهشت من كون المخطوطات جميعًا مطبوعةً على الآلة. وكما في مخطوط **حياةٍ حيوانيَّة**، طُبع اسمُ خالة أمّي

على الصفحة الأولى، وتحته مباشرةً عنوان المخطوط: **الحقيقة بشأن النّور** (وفي الهامش كتبَت بخطّ اليد عنوانيْن آخريْن، كأنّما تضعهما بالحسبان: **تأمُّلاتٌ شخصيَّةٌ في النور، وملاحظاتٌ شخصيَّةٌ حول النور) وصُدفةٌ واتِّفاقات**. كلُّ مخطوطٍ منها يتضمَّن استهلالًا، وقد خِلتُ بدايةً أنَّ الأمر يتعلَّق بثلاثة أعمالٍ متمايزة. لكنْ بقدر ما كنت أتقدَّم في تصفُّحها بقدر ما كنت أعي أنَّها تتناول جميعًا مواضيعَ مشتركة، ومع ذلك، تظلُّ ـ وهذا وجهُ العجب ـ مختلفة. لم يفُتني إذن أن أتساءل عمَّا إذا كانت الكتب الثلاثة مجرَّد مسوّداتٍ أو صيغٍ ثلاثةٍ لكتابٍ واحد. وكانت الخالة فيفا قد قالت لي **عليكِ أنتِ أن تجوِّدي عملي**. فظننتُ ساعتَها أنَّها تقصد مهنة القابلة. أمَّا اليوم، فما عدتُ متأكِّدةً من شيء.

كلّ الأشياء مترابطة

عدت مرَّاتٍ إلى علبة الكرتون، واحتجت وقتًا لأستخرج كلّ الأوراق المطبوعة بالآلة، وعددُها يفوق سبعمائة. وأختي، في أثناء ذلك، تراقبُ تقدُّمي في العملِ حريصةً على الحفاظ على مسافةٍ منِّي. كانت تصِف تلك الوثائقَ بالخردة، وتسألني أحيانًا: وإذن، هل تسير أمورك كما ينبغي مع هذه الخردة؟ هل تريدين أن أساعدك في فرزها والتخلُّص منها؟ أو: أَمَا زلتِ غارقةً في حفريَّاتِك؟ ثم تُضيف: لو كنتُ مكانكِ، لحملت كلّ هذا إلى قسم المخطوطات في المكتبة الوطنيَّة، وطلبت منهم أن يخزِّنوه في القبو مدَّة خمسين سنة، ويكون الأمر قد قُضي.

حين سألتني عمَّا تتحدَّث عنه تلك النصوص، شقَّت عليَّ الإجابةُ:

ـ لا أدري.

ـ ليست لديكِ أدنى فكرة؟

ـ ليس من السهل أن أشرح. هذا لا يشبه أيّ شيءٍ ممَّا قرأتُه من قبل.

ـ هل هي مذكَّرات؟ على غرار كتاب القابلات؟

ـ في الحقيقة، كلَّا. محتواها شاسعٌ ومختلف.

فكَّرتُ برهةً، ثم أضفتُ:

ـ أظنُّ أنَّها تحاول أن تَفهم الكائنَ البشريّ.

ـ أن تفهَمه؟

ـ أن تقيس مدى عجزِه.

ـ ليست تؤمن فيه؟

ـ يصعب أن أجزم.

ـ فهمت.

خلصتُ:

ـ لم أنتهِ بعدُ من فحصِ كلّ شيء.

أكثر ما يطرح لي مشكلًا في هذه النصوص، هو أسلوبُها، أو تحديدًا، غياب الأسلوب. لا تتنوَّع الأساليب من مخطوطٍ إلى آخر فحسب، بل أيضًا من فصلٍ إلى آخر، لا بل أحيانًا من فقرةٍ إلى أخرى. اختلافٌ بيِّنٌ، لدرجة أنَّنا نخالها كُتبت بأيدٍ عديدة. إنَّ هذه المخطوطات أشبه شيءٍ بدفترٍ في التمارين الأسلوبيَّة. في بعض المقاطع، تكون النبرةُ جافَّةً، دقيقةً وعلميَّةً، وفي مواضع أخرى، تكون منمَّقةً وشعائريَّةً، إن لم أقل **إنجيليَّةً**. وهنا وهناك، تصادفُك حواراتٌ على طريقة فلاسفة الأنوار. لا تلقي الخالةُ بالًا لمسائل الاتِّساق المنطقيّ أو التوتُّر السرديّ، لا تأبه البتَّة لقواعد التسلسل

ولحظات الانتقال. ألفيتُ أحيانًا صعوباتٍ في المواصلة، بسبب طابع التفكُّك، إذ يبدو كأنَّما تنقُصُ جسورٌ بين الفقرات. نصوصٌ تفتقرُ إلى الانسجام، ومليئةٌ بالتناقضات، ذلكم كان أوَّل حكم تشكَّل في ذهني وأنا أتصفَّح المخطوطات. بالتأكيد، لا نملك أن نقول إنَّ الشكل لا يناسب المحتوى، ما دامت الخالة فيفا قد نبَّهت قارئها إلى: **الشيءُ لا يستتبع بالضرورةِ غيرَه. العالمُ مجزَّأٌ، والإنسانُ لا يُدرك منه إلَّا شظايا الشظايا**. فضلًا عن أنَّ عناوين الفصول لا توافق بالضرورة محتواها، بل يحدث أن تناقِضَه. وبعضُها، لعدم الدقَّة، يترك المجال مشرَّعًا أمام التأويل، وأُمثِّلُ هنا بالفصل الذي يحمل عنوان «**ما أعرفُه**»، أو أطول مقالات مخطوط **صُدفة واتِّفاقات**، المعنون بـ «**شيءٌ آخر**».

تتضمَّن المخطوطات كذلك مقاطعَ كثيرةً متنافرة، جملًا وفقراتٍ لا يربطها أيُّ شيءٍ ببقيَّة عناصر النصّ. بعد تفكيرٍ، أدركتُ أنَّ هذه الكتابة تعكس طريقة الخالة في التفكير، وكيف كانت تلفُّ وتدور من غير أن تطرق الموضوعَ مباشرةً. كانت ميزتُها أن تطلق، دون سابق إنذارٍ، جُمَلًا من قبيل: **في البدء النور، ثم الظّلمات، أوَّلًا النهارُ، ثم يأتي الليلُ، هذا ناموس الأشياء**. أو: **يا صغيرتي دييّا، إنَّ مركز العالم هو دائمًا المكان حيث نوجد**. أو: **ستدركين أنَّ الناس يقولون نعم وإنْ كانوا يفكِّرون في لا**. أو بالعكس، **يقولون لا وهم يفكِّرون في نعم**. بغتةً، خُيِّلَ إليَّ أنَّها كانت قد ذكرت لي ثقبًا أسودَ يقع في مركز الكون، وأنَّها قالت لي: **في مركز الكون، ثمَّة ثقبٌ أسود، ومن قلب هذا الثقب الأسود ينبعث النور**. كثيرًا ما كان يعسر عليَّ متابعتُها. حتى، حين كنت أسكن معها في بيتها!

كان ينتابني الانطباع أحيانًا بأنَّ عباراتها هي خلاصاتٌ أو استنتاجاتٌ لتفكيرٍ معقَّدٍ حول هذا الموضوع أو ذاك، تقريبًا مثل نتيجة معادلةٍ رياضيَّةٍ طويلة.

على أنَّ أكثر ما كان يُدهشني، هو طريقتها في الانتقال من الأصغر إلى الأكبر في فقرةٍ واحدة، فهي ذي تتحدَّث عن ورقةِ شجرٍ، أو نسيج تريكو، ثم تنبِّه القارئ فجأةً إلى أنَّ النجوم في المجرَّة الواحدة تفصل بينها ملايين السنوات الضوئيَّة. أقول لنفسي أحيانًا إنَّها لا تميِّز البتَّة بين الضئيل واللامتناهي، وبين الأساسيّ والثانويّ. أو بالأحرى، في ذهنها، الضئيل لامتناهٍ، واللامتناهي ضئيل. وذلك ما يوافق قناعتَها بأنَّ كلُّ الأشياء مترابطة. كتبَت في مخطوط صدفة واتِّفاقات: **في نهاية المطاف، ندرك أنَّ كلَّ الأشياء مترابطة. لا يهمّ أن تتفرَّق البنية في كلِّ اتِّجاه، مثل جذور شجرةٍ، أو مثل متاهةٍ تحت الأرض، مشكَّلةٍ من دروبٍ سرِّيَّةٍ ومتناثرة، ما دامت كلّ الطرق تتلاقى، في نهاية المطاف.** (لا أستطيع إلَّا أن أفكِّر في أنَّ مفهوم الصدفة هو ما يصف، على أفضل نحوٍ، بناء وتركيبها هذه المخطوطات). بحسابٍ سريع، عاينتُ تواتر هذه الكلمات الثلاث، **كلُّ الأشياء مترابطة**، أكثر من ثلاثمائة مرَّةٍ، في شتَّى السياقات. حين تنتهي الخالة إلى مأزقٍ إبستمولوجيّ، تنسَلُّ منه متوسِّلةً بهذه العبارة: **كلُّ الأشياء مترابطة**. هذه العبارة هي بمثابة استدلالٍ، إنَّها الحجَّة النهائيَّة التي تغنيك عن الاستنتاج، **كلُّ الأشياء مترابطة**.

حين أعلمتُها بأنَّني سأترك كلِّيَّة اللاهوت لكي أصير قابلةً، اكتفت بالقول:

– في نهاية المطاف، نُدرك، يا عزيزتي دييّا، أنَّ كلَّ الأشياء مترابطة.

تشيكيتا

لـمَّـا سـألـتـنـي أخـتـي، أوَّل مـرَّةٍ، عـمَّـا أنـوي أن أفـعـلـه بالمخطوطات، أجبتها أنَّني لا أدري.

ـ على أنَّ من البيِّن أنَّ خالة أمِّي كانت تنوي نشرَها. وجدتُ في علبة موز تشيكيتا رسالةً من ناشرٍ تؤكِّد نيَّتها. يبدأ الناشر بشكرها، شكرًا صادقًا، على المخطوط الذي بعثت به إليه، ثم يواصل: **هو بالتأكيد مخطوطٌ مميَّزٌ وأصيل، لكنْ للأسف، تتشعَّب موضوعاتُه وتتفرَّق، بحيث لا يمكننا أن ننشره.**

لا تـعـيِّـنُ هـذه الـرسـالـة، الـمؤرَّخة فـي أكـتـوبـر 1988، أيّ مخطوطٍ يتحدَّث عنه الناشر! لكنَّني أفترض أنَّه يقصد مخطوط **حياة حيوانيَّة، بحثٌ في سلوكات الحيوان البشريّ**، نبرة الرسالة حميميَّة، والناشرُ يعبِّر عن رفضه بلطفٍ بالغ. يعتذر أوَّلًا عن تأخُّره في الردِّ، قال إنَّه وجد المخطوط **مدفونًا** تحت كومةٍ من المخطوطات، وكانت السكرتيرة آنذاك في إجازة أمومة. توحي

رسالتُه بأنَّ الخالة قد ذهبت إلى مقرِّ دار النشر، إذ يشكرها على الزيارة. ويُنهي الرسالة، بأن يشرح لها أنَّه قد اضطرّ إلى التخلِّي عن نشر كثيرٍ من الكتب، بسبب الغيوم التي بدأت تغطِّي سوق النشر. يبدو الناشر حريصًا على مداراتها، ربَّما مراعاةً لسنِّها، لكنْ حين نقرأ ما بين السطور، نُدرك أنَّه عاجزٌ عن تحديد طبيعة النصّ. أفترض أنَّ بدلًا من النعت أصليّ الذي يطلقُه على المخطوط، ينبغي أن نقرأ محيِّر، كيلا نقول بلا رأسٍ أو ذيل. كتبَت الخالةُ على ظهر الظرف ملاحظةً شخصيَّةً بقلم حبرٍ أزرق: عدم رضًا على البنية.

بالمناسبة، جارتي بالأسفل، تعمل محرِّرةً في دار نشرٍ صغيرة. ذات مرَّةٍ، حدَّثتُها بإيجازٍ عن تلك المخطوطات. كنت قد أنهيت نوبتي الليليَّة، وكنَّا صباح الأحد. هي، خارج المنزل تكسح الثلج الذي تجمَّع على الرصيف، وحاويات الأزبال منذ الليلة السابقة. ومن الشعاع الأزرق المنبعث من شاشة التلفاز في شقَّتها، أدركت أنَّ أطفالها يشاهدون برامجهم الصباحيَّة.

نبَّهتُها إلى أنّ المخطوطات أميَل إلى أن تكون متنافرةً، لكنَّها أجابتني بأنَّ الناسَ صاروا اليومَ أكثر انفتاحًا على السرود الفوضويَّة غير المهيكلة، ممَّا يؤدِّي أحيانًا، بحسبها، إلى أغلاطٍ فنِّيَّة. فضلًا عن أنَّ ناشرًا جيِّدًا، يستطيع أن يصنع المعجزات، أن يبنيَ جسورًا بين تيماتٍ متفرِّقة، وأن يستجلي ما سمَّته هي العمود الفقريّ للنصّ.

أضافت مدقِّقةً:

ـ أي التصوُّر الكامن في مجمل النصّ.

إنَّ دارَ نشرٍ صغيرةً، على شاكلة الدار التي تشتغل فيها هي، لن تملك الجرأة على أن تنشر عملًا على هذه الدرجة من الغرابة، لكنَّها نصحتني أن أقصد أبوابًا أخرى. عليَّ إذن أن أتحضَّر للترافع عنها.

عليَّ كذلك أن أعرف أيّ مخطوطٍ أقترح. أستطيع أن أبعث بها جميعًا إلى الناشر، وأقترح عليه أن يستخلص منها جوهَرَها.

الإنسانُ في آنٍ
من الثدييّات ومن ثنائيّات الأقدام

باستثناء رسالة ذاك الناشر المبالِغة في المراوغة، بحيث لا أستطيع أن أُحدِّد أيَّ مخطوطٍ تقصد، ليس لي أيُّ عنصرٍ يسمح بتحديد التاريخ الذي كتبت فيه تلك النصوص. فرضيّتي أنَّ الكتابة قد استمرَّت عقودًا عديدة، حتى يوم وفاة الخالة فيفا، سنة 2015 . **حياةٌ حيوانيَّة** يظلُّ هو المخطوط الأكمل بينها. كثيرٌ من الإشارات تقودنا إلى الظنِّ أنَّه أيضًا أقدَمُها. أطولُ فصولِه يحمل عنوان **الإنسانُ في آنٍ من الثدييَّات ومن ثنائيَّات الأقدام**، لكنْ، إن استندنا إلى التعليقات الجانبيَّة على المخطوط، فإنَّ الخالة قد فكَّرت أيضًا في أن تعنوِنه بعنوان **فيمَ تتفوَّق باقي الكائنات على الإنسان؟** وكما هو واضحٌ من العنوان الثاني، هذا المقطع مكرَّسٌ للمقارنة بين الثدييِّ المسمَّى إنسانًا، وبين غيره من الفصائل. يبدأ الفصل هكذا: **الإنسان يستغرق وقتًا للنضج، أطوَل ممَّا تستغرقه**

باقي الحيوانات. تتساءل الخالة فيفا عمّا تملكه باقي الحيوانات زيادةً عمّا يملكه الإنسان، فتأتي الإجابة في هذه الكلمات: في كثيرٍ من الميادين، يكون الإنسان في ذيل المملكة الحيوانيّة، والسبب الرئيس في ذلك، هو كون نضوج نسله بطيئًا جدًّا. أكثر مفهومٍ تتوسّل به لوصف الكائن البشريّ هو ثدييٌّ. حين قلت ذلكِ لأختيّ، أجابتني أنّها لا ترى غرابةً في الأمر، قياسًا إلى مهنة الخالة. عدا ذلك، يركّز الفصلُ على عرض سلوكيّات مختلف الحيوانات، ومقارنتها بسلوكيّات الإنسان. كتبَت: **الحملانُ والأمهار تقفُ على أقدامها ما إن تولد، بينما يحتاج الإنسان اثني عشر شهرًا تقريبًا لكي يستطيع القيام بثلاث خطواتٍ مترنّحة، وعاميْن، ليكتسب معجمًا من خمس عشرة كلمة. خلال هذه المدّة، تستطيع القطّة أن تولَد وتبلُغ وتحبل وتلد مرّةً واحدةً على الأقلّ. لاحقًا، يتعلّم الإنسان كلماتٍ من قبيل: سُوَيق، وبعدها كلماتٍ أخرى من قبيل: قضيّة عادلة، أو حرّيّة، أو حسرة ـ حتى وإن لم يكن مؤكّدًا أنّه يفكّر يومًا في معناها العميق.**

النحل والعناكب تقوم برقصاتٍ معقّدة، كذلك ترقص الطيور، أمّا الإنسان فيحتاج عاميْن اثنيْن ليتمكّن من القفز على قدمٍ واحدة، أي المدّة نفسها التي قد يحتاجها لتعلّم العزف على هارمونيكا، شهيقًا وزفيرًا. نهاية الفصل، وقعتُ على جملةٍ أزعجتني، بقدر ما كانت متناقضةً مع البقيّة: **على غرار الإنسان، تمارس قرَدَة البونوبو الجنس طلبًا للسلام.**

أَهَشُّ من آنية خزف، أو من قشرة بيضة، أهشُّ الأشياء طُرًّا على وجه البسيطة

على الرَّغم من أنَّ الإنسان حُبيَ نظرًا صحيحًا، وأستعمِل هنا عبارةَ الخالة، إلَّا أنَّها تضع لائحةً بالحيوانات التي تمتلك حدَّة بصرٍ أقوى وأعقد، على نحوٍ بيِّنٍ، من نظيرتها لدى البشر. ومَثَلُ ذلك، عيْنُ الصقر المزوَّدةُ بنظام زووم مندمج، يمكِّنها من تحديد فريسةٍ على بُعد عدَّة كيلومترات. غير أنَّ جائزة أحدِّ بصرٍ في مملكة الحيوان يفوز بها نوعٌ من جراد البحر (تؤكِّد في البداية أنَّه جراد بحر، ثم تتناقض إذ تتحدَّث عن سلطعون). تبدأ عباراتُها بمعايناتٍ في حدود قدرات الكائن البشريّ. تكتُب مثلًا، إنَّ الإنسان لا يرى شيئًا في الظلام. بعدها تورد قائمةً بأسماء الحيوانات القادرة على الإبصار في الظلام، ومن بينها البوم التي تحلِّق في الأعالي، والقِرش الكامن في أعماق البحار. وبعد أن تبسط القولَ في حاسَّة البصر، تنتقل إلى حاسَّة

السمع، فتلاحظ أنَّ **حتى الحشرات التي لا تملك آذانًا، تسمع** أفضل من أيِّ إنسان. تستكشف الحواسَّ، حاسَّةً بعد أخرى، فترى أنَّ الشمَّ لدى الإنسان، كذلك أقلّ تطوُّرًا من نظيره عند أغلب الثدييَّات، فتذكر، من بين نماذج كثيرةٍ توردُها، كلب الراعي الأيسلنديّ الذي يفوق شمّه بدرجةٍ كبيرةٍ نظيرَه عند سيِّده. وتشير إلى أنَّ **الإنسان يقضي معظم وقته في شرب القهوة والتبوُّل، بينما يعيش الجمل أيَّامًا، في عُرض الصحراء، من دون ماء**. أمَّا فيما يخصّ القدرة على تحديد الاتِّجاهات، فإنَّ **الانسان قادرٌ على الذهاب حتى البقالة، بينما يستطيع طائر الخرشنة القطبيَّة، جوهَرةُ الأُفُق، أن يهاجر من قطبٍ إلى آخر، على جناحَيْه الخفيفيْن، أعجوبةِ الطبيعة**؛ وخرطومُ الفيل يمكِّنه من أن يستشعر حركةً على بُعد خمسة عشر كيلومترًا؛ والحوتُ، أضخمُ الثدييَّات، قادرٌ على أن يرصد حركة غوَّاصةٍ تبعد عنه بعشرات الأميال، وأن يشوِّش على أجهزة تواصلها. **الحقُّ، على الإنسان أن يقضي حياتَه كلَّها، في تأمُّل عجائب المخلوقات!**
على امتداد الصفحات، تبدو الخالة فيفا مقتنعةً، أكثر فأكثر، بدونيَّة النوع البشريّ مقارنةً بغيره من أنواع الحيوان. وتخلُص في نهاية المقطع الطويل عن الثدييِّ ثنائيّ الأقدام، أنَّ **الوليدَ البشريّ، هو هشٌّ هشاشَةَ جناح ذبابة. إن أفلتَ جسَدُه من أيدي والدِه المرتعشة بسبب الاضطرابات العصبيَّة (وبعضُ تلك الاضطرابات يفوح برائحة الكحول)، فإنَّ النورَ قد ينطفئ من فوره. إنَّ الكائن الذي يخلع على نفسِه لقب سيِّد الخلق، هو في الواقع الحيوانُ الأشدّ وهنًا داخل مملكة الأرض كلّها، إنَّه**

النوعُ الأشدُّ هشاشةً، أهَشُّ من آنية خزفٍ أو من قشرة بيضة، أهشُّ الأشياء طُرًّا على وجه البسيطة.

ضمن السجلِّ نفسه، كتَبت في رسالةٍ إلى مراسلتها الويلزيَّة: **في الواقع، إنَّ الكائن الأشدّ هشاشةً على الأرض، لا يُشفى أبدًا من كونِه وُلد.**

الدّماغ

القسمُ الثاني من الفصل المعنوَن بـ **الإنسانُ في آنٍ من الثدييّات ومن ثنائيّات الأقدام**، ضمن مخطوط **حياةٌ حيوانيّة**، يتناولُ الدماغَ، وكلّ الركام الموجود فيه. كتبَت الخالة: **إنَّ دماغ الإنسان أكبر بخمس مرَّاتٍ من الحجم الذي ينبغي أن يكون عليه، قياسًا إلى حجم جسمه. وحجم هذا العضو يفسِّر لِما يقلق الإنسان على الغد، ويخشى ألّا يُحَبَّ. أن يكون وحيدًا، أو غير مفهوم.** وفي هذا الميدان الدقيق، يجدر أن نشير إلى أنَّ خالة أمّي ترى أنّه على الرَّغم من تفوُّق باقي الكائنات على الإنسان، إلَّا أنَّ ميزة الإنسان تكمن في أنَّ نقاط ضعفه هي عيْنُها مصدرُ قوَّتِه. **يمكِّنُ حجمُ الدماغ الإنسانَ كذلك من تخيُّل شتَّى الأشياء، وحلّ المشاكل.** أمَّا الفصل الذي يتناول حدودَ الجنس البشريّ، فيستفتح بهذه الكلمات: **لمَّا كان الإنسان محرومًا من الأجنحة، فإنَّه يصنع الطائرات.** وبالمثل، **إنَّ هشاشات الإنسان** هي ما دفعَه

إلى اكتشاف الكهرباء، واللقاحات، والمكواة والحاسوب (أضافت الحاسوب بقلم الحبر الجافّ في الحاشية). وبحسبِها، فإنَّ أكبر ميزات الإنسان عدم قابليَّة مزاجه للتوقُّع، ممَّا يعني أنَّه، بخلاف باقي الحيوانات، قابلٌ لأن يفاجئ حتى نفسه. ففي كلِّ لحظةٍ يمكنه أن يقفز على قدمٍ واحدة، أو يقف على رأسه بلا هدفٍ محدّد. **أمَّا أغربُ غرائبِه، فهي أنَّه، في الغالب الأعمّ، لا يدري لِم يصنَع ما يصنَعُه. إنَّه متمرِّدٌ، ضدَّ القانون.**

ليس مستغربًا إذن أن تكون أرفع مواهبه، بحسبِها، هي قدرته على كتابة قصائد. أن يكون بمقدوره الادِّعاء بأنَّ **سمكةً قد علقت في شباك الكلمات**، أو أن يقول إنَّ **الكلمات شباكٌ لتصيُّد الريح**. أو أن يكتب: **ودمك يسيل، أعمى، ثقيلًا، منقطع النفس.**

يشتمل المخطوط على أربع صفحاتٍ مقتطفةٍ من أشعار، إمَّا قصائدُ كاملةٌ أو أبياتٌ معزولة، كانت الخالة فيفا تحبُّها على نحوٍ خاصّ. كتبت في آخر الفصل: **والآن أطرقُ مسألة اللّغة**، وكعادتها، غيرَ موثوقةٍ، لا تفعل. لا تذكر بعدها أيّ شيءٍ عن مسائل اللغة أو اللسان.

أمَّا فيما يخصّ مسألة العواطف، فيبدو أنَّها تعتبر الإنسانَ ما يزال غائصًا في ظلماتِ كهفه.

بالنسبة إلى المشاعر، فإنَّ الكائن البشريّ في ذهولٍ، وليس يملك سوى مئزرٍ يستر به حميميَّتَه. لا بل إنَّه عارٍ كَيَوْمِ وُلِدَ. لا يفهم لمَ يشعر بما يشعر به.

سوف تـ

سألتني أختي عمَّا إذا كانت الخالة تطرقُ موضوعَ الولادات في مخطوطاتها. كلَّا، خالةُ أمّنا تكتفي بأن تكتبَ أنَّ **الإنسان يأتي إلى هذا العالم، ثم يتركه.** منخرطةً في سلالة جدَّاتها القابلات، لا تقول كلمةً عن المخاض في حدٍّ ذاته. كتبَت: **لا أحد يتذكَّرُ ولادَته، وإلى الآن لا أحد استطاع أن يصف لنا تجربة موتِه. بالمقابل، كثيرٌ من الناس عبَّروا باستفاضةٍ عن موتِ غيرهم. قطعًا لدرء خوفِهم من موتِهم هم.**

الرّسائل التي كانت تتبادلها مع مراسِلتها تفصحُ عن الأبحاث التي كانت تنخرط فيها، وعددٌ كبيرٌ من تلك الرسائل يشهد بأنَّ المرأتيْن كثيرًا ما كانتا تطرقان مسألة الموت. تناقشان مشاهد الاحتضار في الأدب؛ وتكشفُ مسوّدات الخالة، من بين ما تكشفه، أنَّها كانت ترى أنَّ الزواج هو سبب وفاة عددٍ من الشخصيَّات في ملاحم الساغا الأيسلنديَّة. أمَّا مراسِلتُها الويلزيَّة،

فتخصّص حيّزًا كبيرًا للتأمُّلات في موت لافينيا في تراجيديا **تيتوس أندرونيكوس**، وموت أنّا في **أنّا كارينينا**، وموت أليونا إفانوفنا في **الجريمة والعقاب**.

الفصلُ الذي يحمل عنوان: **خطابٌ إلى الأطفال الذين قبلتُهم**، الواقعُ في آخر مخطوط حياة حيوانيَّة، يؤكِّد الشائعات التي تقول إنَّ خالة أمِّي كانت تتحدَّث إلى الوِلدان في الحضّانة. يبدأ الفصل هكذا: **أهلًا وسهلًا أيُّها الكائن الصغير. أنت أوَّل «أنتَ» في هذا العالم، وأخر «أنت»**، ويعرض قائمةً من 29 شيئًا ينتظرُها الطفل. كلّ جملةٍ منها تبدأ على هذا النحو: **سوف تـ...**

1. سوف تشارك العالم مع الكائنات التي تعمر الأرض، طيور السماء، وأسماك المحيطات، وأشجار الجبال.

2. سوف تجرِّب الرغبة العجيبة في أن تمتلك وتراكم أشياء لا تحتاجها البتّة.

3. سوف تتخيَّل أنَّ الأمور تجري مجرًى معيَّنًا، لكنَّها ستجري مجرًى آخر. هكذا تعمل الصدفة.

4. سوف تحذَر من قريبك، وتخشى أن يتسبَّب في أذاك.

سألتني أختي ذات يومٍ:

ـ ألا تقول شيئًا عن الهواجس، والرغبات، والأماني، والمخاوف؟

ـ كلّا، ليس تمامًا.

قادتني آخر جملةٍ في هذا **الخطاب إلى الوِلدان**، إلى عددٍ من التأمُّلات، لأنَّها واحدةٌ من المناسبات النادرة التي تطرق فيها

الخالةُ موضوعة الحياة العاطفيَّة.

29. سوف تعرفُ الرفضَ وآلام القلب، ستشعر كأنَّ صدرك يحترق بنارٍ ملتهبة، وتنعقدُ معدتك.

سدًى بحثتُ عن قصص الحبّ التي شهدها شارع ليوشفالاغاتا، ولم أهتدِ تقريبًا إلى شيء. على أنَّني، وأنا أفحص محتوى مكتبتِها، وقعتُ على ورقةِ مخطوطةٍ دسَّتها بين صفحات **فلورا أيسلنديكا**، مخطوطةٍ لا تحوي سوى جملتَيْن، منسوختيْن سبع مرَّاتٍ متتاليةٍ، وبشكلٍ متناوب.

أنتظرك.

لا أنتظرك.

كأنَّما تريد أن تقارن بين العبارتيْن عبر مقابلتهما، جنبًا إلى جنبٍ، والتقرير أيُّهما تحفَظ. سألتُ أمِّي، فأخبرتني أنَّها لا تعرف شيئًا. ولكي أنقل كلامها بدقَّةٍ، قالت: أولئك الذين أخالطُهم، خُرسٌ كمقابر.

قرأت كذلك تلك التسع وعشرين عبارةً على أختي، فاغتنمت الفرصة لتحدِّثني عن زوجها.

قالت:

ـ تحدث أشياء لم نتخيَّلها.

ـ مثلًا؟

ـ سيغوربيارتر؟

ـ ما به سيغوربيارتر؟

ـ لقد كان لنا حديثٌ مطوَّلٌ أمس.

منذ وقتٍ غير بعيد، أسرَّت لي أختي بأنَّها تجد زوجها متغيِّرًا.

ـ أشكُّ في أنَّ لديه معجبةً في عمله، ولا بدَّ أنَّه قد انتبه إليها، ولا يبدو أنَّ الأمر يزعجه.

قالت لي الخالة فيفا ذات يومٍ:

ـ سترين يا عزيزتي ديبا أنَّ الأحداث التي لا تقع، لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن تلك التي تقع.

كلَّما حاولت تشكيل بازل حياتها، زادت الأسئلة التي أطرحُها.

ما يزال العالم مظلمًا

أستيقظُ صباح اليومِ الأقصر في السنة، من الليلة الأطول في الأبديَّة.

ينبغي أن أصبر مدَّةً لكي يُبدِّدَ النورُ الظُّلُمات، ويستعيد العالمُ شكلَه. أنصِتُ إلى أصوات العمارة، يُهيَّأ لي وقعُ خطواتٍ تحت العلِّيَّة. أغادر فراشي، وأفتح الستائر. حجابٌ من الضباب الرماديّ يخيِّمُ على المقبرة. تظهر طائرةٌ من خلف غيمةٍ، لتختفيَ خلفَ أخرى. يبدو أنَّ الشمس لن تخترق هذه الحجب أبدًا.

أقصد إلى المطبخ. شخصٌ ما يصعدُ السلّمَ ركضًا، ثم أسمعُ طرْقًا على بابي. تقول زميلتي ڤاكا إنَّها قد دخلت العمارة في اللحظة نفسها ورجلٌ صعدَ إلى الطابق الأخير. مدَّت لي كيسَ ورقٍ أتت به من المخبز، أزاحت مخدَّتيْن، وجلست على حافَّة أريكة المخمل. في المرَّة الأولى التي زارتني فيها، لم تَخفَ عليَّ دهشتُها. حتى إنَّها أسرَّت لي بذلك.

ـ شقَّتُكِ مثيرةٌ للعجب!

والآن تنظر إليَّ بملامح جادَّة. اليومَ، قبِلَت طفلةً وُلدت قبل موعدها بستَّة أشهر.

ـ لقد أتت إلى العالم قبل الأوان.

أحيانًا، يُبطئ الأطفالُ ويتركوننا ننتظر، ويأتون متأخِّرين بأسابيعَ عديدة، وأحيانًا يأتون قبل الموعد بكثير، فيولدون ضئيلين، آذانُهم بالكاد أكبر من حبَّة البازلاء، وشبكةٌ من العروق الزرقاء تغطِّي جلدَهم الأبيض الرقيقَ كورق الأرز.

واصلت ڤاكا:

ـ لم تكن جاهزةً بعد.

وضعَت مخدَّةً تحت رأسِها، وجلست في عمق الأريكة.

قلت:

ـ سأحضِّر لكِ قهوة.

ملأتُ مرجلًا بالماء، وأوقدت صفيحة الموقد.

يحدث أن يولد طفلٌ ويموت في اللحظة نفسها؛ بضع نبضاتٍ من قلبه، ثم يذوي الإيقاع، وينطفئ النور.

وضعتُ الفنجان على صحنِه، ودهنتُ بالزبدةِ قطع الخبز الصغيرة المدوَّرةَ التي أحضرَتها.

ـ ما تزال حيَّة؟

ـ نعم، نقلناها إلى قسم الأطفال حديثي الولادة.

ترفع زميلتي فنجانَها، وتديره في يدها، وتحرِّك شفتيْها.

قالت:

ـ إنَّه الطقم الأبيض الشهير لدى هيورتر نيلسن.

لزِمَت الصمتَ لحظاتٍ، ما يكفي من الوقت لتناول خبزِها، ثم استأنَفَت:

ـ علمتُ أنَّكِ فقدتِ طفلًا لحظةَ ولادته.

ـ أجل، ولدٌ.

ـ منذ زمن؟

ـ شهر يوليو تكون قد مضت ستّ عشر سنةً بالتمام.

ـ وكان قد أتى في موعده؟

ـ نعم.

بعض النساء في المصحَّة يسألنني هل لديَّ أطفالٌ، فأجيبهنَّ: كلَّا. فإن سألنني هل وضعتُ أطفالًا، أجيبُهنَّ بأنَّني كدتُ أن أصير أمًّا.

ترشف زميلتي جرعة قهوة، تلمّ الفتات المتناثر على الطاولة الواطئة، وتضعه في صحن الفنجان.

قالت:

ـ رأيت حُلمًا غريبًا منذ ليلتيْن.

تردَّدتْ برهةً، ثم واصلت:

ـ عُهِد إليَّ برعاية ستَّة رُضَّعٍ، كلّهنَّ بنات، وكنت وحدي أرعاهنّ. كان عليَّ أن أغذِّيهنَّ، ولم يكن ثمَّة سوى كرسيٍّ عالٍ إلى الطاولة الكبيرة.

في المصحَّة، نقارنُ بانتظام أحلامَنا، والظاهرُ أنَّ القابلات يحلمن كثيرًا بأنفسهنَّ يلِدن. مثلما يحلمن بانتظامٍ، بأطفالٍ صغار.

كانت خالةُ أمِّي تعرف التأويلات كما تعرف أصابع يدها: أن تحلم بولادةٍ يعني سعادةً كبيرةً في الطريق للمرأة المتزوِّجة، وصعوباتٍ كبيرةً لغير المتزوِّجات؛ أن ترى طفلًا يسقط، يعني مواجهة صعوبات؛ أن تراه يجادل أو يتشاجر، علامةُ حظّ؛ أن تراه يبكي، علامةُ صحَّةٍ وعافية؛ أن تراه يجري، نذيرُ شؤم؛ أن تراه يمشي، فألُ حرِّيَّة؛ وأن ترى أطفالًا كثرًا، بشارةُ خيرٍ عميم. أمَّا الأطفال المعدمون فنذيرٌ بمشاكلَ وصعوباتٍ في الطريق إليك.

قلتُ لزميلتي:

ـ ربَّما يعني هذا أنَّك تخالين نفسك غارقةً تحت ثقل المسؤوليَّات.

أُفكِّر أيضًا في الضغط المفرط الذي تعانيه جرَّاء عملها في فرقة الإنقاذ. منذ مدَّةٍ قريبة، قضت نهاية أسبوعٍ بأكملها في البحث عن سائح تائه. وحين عادت إلى العمل يوم الاثنين، أخبرتني أنَّهم، لَمَّا سكنت العاصفة، تمكَّنوا من العثور على الرجل خلف تلٍّ لاذ به من الريح.

وأضافت:

ـ كنَّا نعلم أنَّ الرجل الذي نبحث عنه لم يعد حيًّا.

قدَّمتُ لها ولنفسي فنجان قهوةٍ آخر.

سألتني:

ـ أنا أنصح النساء أن يصغين إلى أجسادهنَّ، كما علَّمونا. لكنْ هل تصغي الأجسادُ إلى النساء؟

عبَّت عميقًا نفسًا من الهواء، ثم أجابت نفسَها بنفسها:

ـ الجواب: لا!
بلّلَت شفتيْها في الفنجان.
استأنفَت الكلام:
ـ لقد راجعتُ عددَ النساء، في العالم، اللواتي يمُتن أثناء الوضع.
ـ تقصدين العدد الإجماليّ؟
ـ نعم، العدد الإجماليّ.
خفَضَت عينيْها، وأطلقَت الرقم.
ـ ثمانمائة وثلاثون امرأةً كلّ يوم.
رفعت رأسَها وتفحَّصَت وجهي.
ـ كأنَّما تسقط أربع طائراتٍ بركَّابها كلّ يومٍ.
تردَّدَتْ مرَّةً أخرى، ثم خلصتْ إلى النتيجة:
ـ وفي حالة سقوط الطائرة، سيتصدَّرُ الخبر المنابر.
ـ صَحيح، سيوردون الخبر في نشرة التلفزيون.
قامت من مكانها، اتَّجهت إلى النافذة، ومكثت فيها برهةً.
الغيوم تدنو ثم تبتعد، سائرةً بأقصى سرعة.
أخيرًا، بدأ الضباب على المقبرة يتبدَّد؛ شريطٌ أزرق يبرز أسفلَ السماء؛ يتَّسع الشريط شيئًا فشيئًا، فتتجلَّى الجبالُ في الأفق مرتديةً درعَها الأبيض.
تذكَّرت فجأةً أنَّ ڤاكا قد انتقلت إلى شقَّةٍ تكتريها مع صديقةٍ من فرقة الإنقاذ، وأنَّها قد أخبرتني بحاجتهما لبعض الأثاث.
طرقتُ الموضوعَ رأسًا.

ـ ألم تقولي لي إنَّك بحاجةٍ إلى أريكة؟

التفتت إليَّ.

قلتُ لها:

ـ أنوي التخلُّص من جزءٍ من الأثاث الذي ورثتُه.

جاست بنظرتها الصالون، وأمَّنَت على كلامي.

ـ ألا تحتاجين شيئًا آخر؟

في زيارتها الأولى إليَّ، كانت قد جابت الشقَّةَ، وافتتنَت بالأثاث المصنوع من خشب الساج. والآن، تتفقَّد الشقَّة مجدَّدًا.

سألتني:

ـ هل أنتِ متأكِّدةٌ؟

ـ تمامًا. خُذي ما بدا لكِ.

سعلَت سعلةً خفيفة.

ـ أرِني ما يمكنكِ أن تتخلِّي عنه.

انتهت إلى اختيارِ الأريكة التي تشبِّهُها أختي بسماءٍ شتويَّةٍ متوعِّدةٍ ومحمَّلةٍ بالمطر، وسرير جدِّي وجدَّتي الذي كان قد فُكِّك ووُضع في الغرفة الواقعة أقصى الصالون (وكنَّا قد تخلَّصنا من فراشه)، وكذا مائدةٍ وكراسيها كانت ملكًا لجدَّتي. شجَّعتها كذلك على أن تأخذ مقعدًا وطاولةً واطئة.

أجرَت اتِّصالَيْن: تستطيع أن تستعير مقطورةً من طرف فريق الإنقاذ. ستأتي صديقتاها في الفرقة لمساعدتها في نقل الأثاث، في وقتٍ لاحقٍ من النهار. أمَّا الآن، فتريد أن تذهب أوَّلًا إلى بيتها لترتاح.

بيْضٌ

تسألني أختي في الهاتف قلقةً:

ـ هل مرَّ الكهربائيّ؟

ـ نعم.

ـ ماذا قال؟

ـ قال إنَّني أشغِّل أجهزةً معطَّلةً، وأنَّ شقَّتي تنقُصها الإضاءة. وبدا له أنَّه قد دخل بيت عجوزٍ عمياء.

خطرَت ببالي هديَّة عيد الميلاد التي تريد شراءها لي.

قلتُ:

ـ تستطيعين أن تهديني مصباحًا.

أسعَدَها أن أستقرَّ أخيرًا على جوابٍ، فأرادت مزيدًا من التدقيق.

ـ مصباحٌ بقاعدةٍ، أم مصباحٌ يوضع على الطاولة؟

ـ أيًّا كان.

ـ ربَّما تحتاجين الاثنيْن؟

ـ نعم، لن يزعجني الحصول عليهما معًا.

وعدتني أن تخبر أُمِّي برغبتي.

ـ تنوين القيام بأشغال؟ أو بفرزٍ؟

أجبتُها أنَّني للتوّ أعطيتُ كنبةً وبعض الأثاث.

ـ إلى زميلتي ڤاكا.

ـ تلك التي تعمل في فرقة المنقذين؟

ـ نعم.

بدت أختي سعيدةً بالخبر المفرح.

ثم جنحَت بالحديث إلى السائح الذي يسكن في الشقَّة تحت العلِّيَّة، فسألَتني هل عرفتُ من أين أتى.

ـ من أستراليا، كنتِ محقَّةً.

ـ هاربٌ من الحرارة؟

ـ لم يخبرني بذلك، لقد بيَّنتُ له كيف تعمل آلة الغسيل. يبدو أنَّه هنا للراحة والتأمُّل.

ترى أنَّ من الغريب، على أيِّ حالٍ، أن يقطع المرء سبعة عشر ألف كيلومترٍ في الطائرة، فقط للتأمُّل.

ـ لَم يوضِّح لكِ أكثر؟

ـ كلَّا.

ساد الصمتُ برهةً في الطرف الآخر من الخطّ.

ثم سألَتني هل أحتاجُ بيْضًا.

ـ كلَّا، فأنا لم أكد ألمسُ البيضات التي أتيتِني بها الأسبوعَ الماضي.

لأختي صديقةٌ تربِّي دجاجًا من الفصيل الأيسلنديّ، تشتري منها بانتظامٍ بيْضًا، وكثيرًا ما تأتيني بدستةٍ منه.

ـ أخبرتِ سائحك بتوقُّعات الطقس؟

ـ كلَّا، نسيت.

زادت الأحوال سوءًا أمس. بدلًا من الإعلان عن أقوى منخفضٍ جوِّيٍّ سُجِّل في أيسلندا منذ سبعين عامًا، تتحدَّثُ توقُّعاتُ الطقس الآن عن قوَّةٍ لم نشهد لها مثيلًا منذ قرنٍ. لا ندري متى بالضبط ستضربنا العاصفة. ليلة 24 ديسمبر، أو ليلة 25، لا تدقيقَ.

قلت:

ـ في هذه الحال، قد نضطرُّ إلى تأجيل احتفالات الميلاد؟

ـ نعم، ربَّما نضطرُّ إلى تأجيلها أربعًا وعشرين ساعةً، والاحتفال مساء 25.

أضافت:

ـ يوم 25، ستكون العاصفةُ قد مرَّت.

ـ سأعمل ثلاث ليالٍ متتاليةٍ في المصحَّة، وبالتالي لن أكون بينكم.

خلُصَت:

ـ إنَّ العاصفة الماضية مجرَّدُ دعابةٍ قياسًا إلى العاصفة المتوقَّعة هذا الأسبوع!

ومع ذلك، لقد حطَّمت العاصفةُ السابقةُ الزجاجَ، وأطارت سقفَ مزرعةٍ عند سفح مرتفع إيافيول. كانت أختي كذلك مندهشةً من كون عددٍ من الناس قد تركوا لُعب الترامبولين منصوبةً في حدائقهم، ونحنُ في عزِّ شهر ديسمبر.

الظلماتُ
تجعلُ العالمَ غير مرئيٍّ

أطرقُ على بابِ الشقَّة أسفلَ العلِّيَّة. يستقبلني المسافرُ في قميصٍ.

ـ جئتُ أعلمُك بالنشرةِ الإنذاريَّة. ننتظر عاصفةً كبيرةً نهاية الأسبوع.

لقد خالفَ الأستراليّ أزرار قميصه، يبدو كطفلٍ صغيرٍ ارتدى ملابسَه بمفرده.

زيادةً في التأكيدِ، قلتُ: ستهبُّ ريحٌ عاصفٌ شديدةٌ.

سألني:

ـ أشدُّ من ريح أمس؟ أقوى؟

تروَّيتُ برهةً. يومَ أمس كان عاديًّا جدًّا. كانت ريح الشمال تكنس بهدوءٍ الثلجَ في الشوارع. كان الطقس مناسبًا ليقصد المرء

أحواض المسابح الحارَّة، حيث يسترخي تاركًا جسدَه يطفو تحت غيوم بخارٍ كثيفة.

قلت له:

- يُتوَقَّع أن تهبَّ رياحٌ هائلةٌ، لا مثيل لقوَّتها.

ثم لخَّصتُ له النشرةَ الإنذاريَّة.

إذَّاكَ، تذكَّرتُ الشرفة التي نصبَ فيها مستأجرُ الشقَّةِ الأصليُّ مشواةً صغيرة، لكي يشوي فيها قطعًا من فخذ الخروف، وكانت رائحةُ دخانِها تقتحمُ نوافذ الجيران. نهايةَ الأسبوع الماضي فقط، استعملَها. أتساءل عمَّا إذا كان يجدر بي أن أُخبره بأنَّ السلطات قد أوصت جميع السكَّان بأن يُدخلوا إلى بيوتهم كلّ الأشياء التي يراكِمونَها في الحدائق والشرفات.

بدلًا من ذلك، قلت له إنَّ القاعدة العامَّة هي أن يأتي بعد العاصفةِ الطقسُ الجميل.

أجملتُ القولَ:

- على أيٍّ، الطقسُ غير مناسبٍ للقيام بأنشطةٍ في الهواء الطلق.

إلى ذلك الحين، ما يزال أمامَه ثلاثة أيَّام يقضيها في السياحة والأنشطة، ثم إنَّ الوضعَ يناسبُ مشاريعَه. دخل إلى الشقَّة، ثم خرج وفي يده خريطةٌ بسطها أمامي.

أراني الأماكن التي يريد زيارتها، وسألني هل تستحقُّ؟

فكَّرتُ.

المشكل، أنَّ النهار قصير.

حاولت أن أشرح له أنَّ النهار يطلع، وما يلبث الليلُ أن يهبطَ؛ وانتهى بي المطاف إلى أن شرحت له الأمر بطريقةٍ أخرى: تظهر الشمسُ في الأفق قُبَيْل الزوال، وتختفي نحو الثالثة عصرًا. يتمطَّى الفجرُ طيلة الصباح، وبعد شروق النور بثلاث ساعاتٍ، يُظلمُ الجوُّ من جديدٍ وتغوص الشمس في البحر.

قدَّمتُ له ملخَّصًا بتلك المعلومات:

ـ ليس لك إلَّا بضع ساعاتٍ لزيارة تلك الأماكن.

ولمَّا دخلت بيتي، فكَّرت في الملاحظة العجيبة التي ألقاها الكهربائيّ وهو ينزل الدرج بعد زيارته: لا أحد يعرف، على وجه الدقَّة، ما النور. نستطيع أن نقيسَه، لكنْ لا نستطيع أن نفهَمَه!

أَأمبراطوريَّةٌ، هذا الشعاعُ الغاربُ، أم تُراهُ يَراعةً؟

في رسالةٍ تعود إلى ثلاثين سنة، تشرح الخالةُ إلى مراسِلتها أنَّها تعمل على كتابٍ سيكون بمثابةِ بحثٍ في النور. وتتصوَّر بنيتَه كدورةٍ **تأوي الوضوحَ الأبديّ**، وتحتَها **يلمعُ الزمان**. بين وصوف الغسق في بلدة بلينهوندان الويلزيَّة وشارع اليوشفالاغاتا، تتبادل الصديقتان، في عددٍ كثيرٍ من الرسائل اللاحقة، معايناتٍ حول النور. كتبَت الخالة فيفا في إحدى الرسائل: أحاول أن أفهمَ النورَ، أن أفهمَ الطريقةَ التي يشتعل بها، والطريقة التي ينطفئ بها.

إحدى رسائل غوينفير الأخيرة، عشرين سنةً بعد الرسالة التي كشفت لها فيها مراسلتُها الأيسلنديَّة عن مشروعها، تبيِّنُ أنَّ الخالة كانت تنوي تسمية مشروعها **أمُّ النور**، بدلًا من **الحقيقة في شأن النور**. راقَ العنوانُ غوينفير كثيرًا، واغتنمَت الفرصةَ في أن تبيِّن

لمراسِلتِها أنَّ الجزءَ الأوَّل من اسمها، غوين، مشتقٌّ من الكلمة الويلزيَّة التي تعني أبيضَ أو واضح.

ترى أختي أنَّ بوسعي الاستعانة بتلك المراسلات في التأريخ للنصوص، وترتيبها ترتيبًا زمنيًّا، لكنَّ الأمر ليس بتلك البساطة، ما دامت مسوّدات خالة أُمّي غير مؤرَّخَةٍ، وفي الرسالة الواحدة تتنقَّل بين الموضوعات المطروحة في مخطوطاتٍ مختلفة. زيادة على أنَّ الحديث عن النور الذي يشقُّ طريقَه في العالم يتردَّد في كلِّ النصوص، وأحيانًا في مواضِعَ غير متوقَّعة. ترِدُ مثلًا، في مخطوط حياةٌ حيوانيَّة هذه الجملة: **تاريخ الإنسانيَّة هو تاريخ مليون جزيْئةٍ مضيئة.**

وكبقيَّة المخطوطات، ينوسُ هذا المخطوط بين نبراتٍ متعدِّدة: شعريَّة، وتنبُّؤيَّة، وعلميَّة. وتمثِّل مقدِّمة **الحقيقة بشأن النور**، نموذجًا دالًا على طريقتها في معالجة الأشياء. في البداية، تتساءل عمَّا تسمِّيه طبيعة النور المزدوجة (لاحقًا، حين نتوغَّل في النصّ، نجدها تتحدَّث عن جوهره الثنائيّ)، تتساءل هل قوام النور موجاتٌ، أم جزيئاتٌ مضيئة، أم هما معًا؟ ثم تتساءل مستشهدةً ببورخيس: **أَأمبراطوريَّةٌ هذا الشعاعُ الغارب، أم تراه يراعةٌ؟** ثم تورد بعد ذلك معطياتٍ بالأرقام حول شروق الشمس وغروبها في ريكيافيك، في شهر يونيو وشهر ديسمبر:

24 ديسمبر: 22:11 (شروق) 22:15 (غروب)

21 يونيو: 54:02 (شروق) 04:24 (غروب)

تُضيف، بالنسبة إلى يوم 21 يونيو، مدينةَ أكوريري، بين

قوسين: 25 : 01 (شروق) 03 : 01 (غروب).

عقب ذلك، تبيّنُ أنّها اكتشفت أنَّ النور أعقد من الإنسان، وتخلص من مقدِّمتها إلى هذه الكلمات: **هذا نشيدي إلى النور، كتابٌ حولَ الظلُمات.**

دهشت كذلك من تخصيصها فصلًا بكامله، من المخطوط، لتاريخ انتشار الكهرباء في أيسلندا، وتعود به حتى ماغنوس سايفنسن، **أوّل من وصف خصائص الكهرباء** سنة 1793. بسَطَت القولَ، ما وسعها البسطُ، في لفظ *rafmagn* (كهرباء)، وشدَّدت على أنَّ ماغنوس كان يفضِّل بدلًا منه استعمال كلمة *rafkraftur*، التي حوَّلها، لاحقًا، الشاعر يوناس هالغريمسون إلى *rafurmagn*، وكذا حوَّرها كونراد جيسلاسون، في معجمه، إلى *rafmagn*. تُشير كذلك إلى أنَّ الكهرباء، خلال سنوات انتشارها الأولى، كانت تُباع بالمصباح. **أي أنَّ كلّ مستعمِلٍ يدفع مقابلًا يتناسب مع عدد المصابيح التي يملكها.**

تسألها غوينفير، في إحدى رسائلها: **هل وصلتِ إلى نتيجةٍ في مسعاكِ؟ هل بلغتِ غايتكِ؟**

بالاستناد إلى مسوّدة جوابها، فإنَّ الخالة فيفا كانت تعتبر أنَّ الإنسان يقضي حياته في إشعال النور وإطفائه. **يُشعل، يُطفئ. يُشعل، يُطفئ.** . كذلك كتبت قبل أن تشرح: **إنَّ فعلَه شبيهٌ بطفلٍ يلهو بمفتاحٍ كهربائيٍّ، من غير أن يفهم هو نفسُه لِمَ يفعل ذلك، ولا أيَّ فكرةٍ تدفعُه لفعل ذلك.**

تسأل أختي:

ـ هل فهمَت الخالة فيفا العلاقة بين الإنسان والنور؟

أجيبُها:

ـ بحسبها، ليس الإنسانُ سوى طفلٍ يلهو بمفتاحٍ كهربائيّ.

أتذكَّر أنَّنا ذات يومٍ، بينما نسير في شوارع غرافارفوغور، قالت لي الخالة فيفا، وهي على المقعد بجانبي، وأنا أقود السيَّارة:

ـ بعض الأفراد يحملون النور في دواخلهم يا صغيرتي ديبا، وآخرون يحاولون أن يجرُّونا معهم إلى الظلمات. لا يتعمَّدون ذلك بالضرورة.

مسارٌ رأسيٌّ عبر اللحظة

سرعان ما عادت زميلتي رفقة صديقتيْها. بدأنَ بوضع الأثاث على صعيد الطابق، ثم أنزلنه عبر السلالم، وحمَّلنه في مقطورة فريق الإنقاذ. إحدى الصديقتيْن هي شريكتها في السكن.

وانتهيْن إلى حمل صوانٍ من الأصونة الثلاثة، وقد حرصتُ على أن أفرغه بعناية، قبل ذلك.

للتوّ، عاد السائح الذي يشغل المنزل في العلِّيَّة، وقد أعانهُنَّ على شحن الكنبة في المقطورة، بحسب ما قلنَ لي.

أسعفني الوقت لأُلَمَّ كلّ أواني المطبخ التي تتوافر قطعٌ زائدةٌ منها، ووضعتُها على طاولة الطعام؛ كانت لديَّ مغرفتان، وبشَّارَتا جبن، ومدلكا عجين، وآنيتا صَلْصَة. كذلك لممت لها طقمًا من أطقم القهوة الثلاثة التي ورثتُها مع الشقَّة، والتي لم تكن تنفعني في شيءٍ، وظلَّت مودعَةً في أقصى دولاب.

تناولت زميلتي آنية صلصة، وجعلت تتفحَّصُها.

قالت وهي تُعيدها إلى مكانها:

ـ لا أجرؤ على أخذ هذا. إنَّه الموديل الذي يحمل صورة بصلة، صناعة تشيكيَّة. كان لجدَّتي مثله.

قامت الصديقات برحلةٍ أخيرة، بين الشقَّة والسيَّارة، حملن فيها كرتونة أوانٍ.

فلمَّا أتممنَ شحن كلّ شيءٍ، بدت شقَّتي أكبر بمقدار مرَّتيْن. غير أنَّ الجدران وقد تعرَّت من الأثاث الذي كان يستُرها، كشفت عن مواضع تقشَّر فيها الطلاءُ، أو بهت فيها الورقُ.

قالت ڤاكا:

ـ ينبغي أن تعيدي طلاء المنزل. إن أردتِ، أستطيع مساعدتك، وهذا أقلُّ واجبٍ بعد كلّ هذه الهدايا.

قلت لها إنَّ الكهربائيّ اقترح عليَّ هدمَ الحاجز الفاصل بين المطبخ وغرفة المعيشة، ممَّا سيمنحني فضاءً مفتوحًا.

قلتُ:

ـ يرى بأنَّ هذا الجدار الفاصل ليس أصليًّا في البناء.

دقَّت على الجدار دقًّا خفيفًا، ثم قالت إنَّه يكفي فكّ بضعة براغٍ، وإنَّها ستعودُ حاملةً مثقابًا.

انقلَبَ البرَدُ مطرًا، وحين تمطرُ السماءُ تُحْدث أحيانًا تسرُّباتٍ في الطابق الأخير. منذ ثلاث سنواتٍ، أقام عمَّالٌ سقالةً خلف العمارة، ليُصلحوا السقفَ، ويغيِّروا نوافذَ الشقَّة في العلِّيَّة.

ومذّاك لم نرَ لهم أثرًا، لكنَّ السقالة ما تزال هناك قائمةً. وما تزال الناشرة، ساكنةُ الطابق الثاني، تلحُّ عليهم بالاتِّصال، وفي كلِّ مرَّةٍ يعدونَها بالمجيء، لكنْ يعرض لهم دائمًا عارضٌ. حتى إنِّي قد تساءلت عمَّا إذا لم تكن مشاكل الكهرباء عندي نتيجةً للتسرُّبات. بين المداخن يمتدّ كابلٌ كان، فيما مضى، يربط هوائيَّات التلفاز، ولم يُسحب قطُّ. ليس نادرًا أن تصطدم به طيورٌ، أن تخطئَ تقديرَ مسارها، إذ تعميها الشمسُ أو انعكاسُ الجليد الفضِّيُّ على الصفيح المتموِّج. فتتناهى إلى أسماعنا حينئذٍ ذبذباتٌ خشنة، ثم تملأ الفضاءَ اهتزازاتٌ تصاحبُ سقوط الطّائر. منذ مدَّةٍ غير بعيدة، اصطدم طائرٌ مهاجرٌ بالكابل قبل أن يسقط بعنفٍ، سقطةً رأسيَّةً، ويحطّ على الرصيف بجانب حاويات الأزبال. وصادف سقوطه عودتي إلى المنزل، فوجدت جارتي واقفةً عندَ رأسِه. كان غارقًا في بركةٍ صغيرة من الدم والريش. وعلى رأسه قنزعةٌ برتقاليَّةٌ غريبة. لا نعرف هذا النوع. صُدمَت جارتي من المصادفة الغريبة التي جعلت هذا الطائر يسقط عند قدميْها، في اللحظة التي خرجت فيها تلقي بالأزبال، وقد عملَتْ للتوّ على نشر كتابٍ مخصَّصٍ لأنواع الطيور المهاجرة. وضعَت الطائرَ في كيس، لكي تطلِع عليه عالِم الطيور الذي اشتغل معها على الكتاب. وحين قابلتُها، بعد ذلك، شرحت لي أنَّ الأمر يتعلَّق بنوعٍ يعيش في المناطق البعيدة، أقصى الجنوب، وأنَّه لم يُرصد قطّ، حتى تلك اللحظة، في أيسلندا. غالبًا، جرفَته التيَّارات الهوائيَّة فوق المحيط. وما انفكّت تردِّد أنَّها صدفةٌ عجيبةٌ تلك التي أتت به بعد سفرٍ خطيرٍ طويلٍ، ليسقط عند قدميْها،

مباشرةً بعدما أرسلت بالكتاب إلى المطبعة. لو سقط قبلها بمدَّةٍ يسيرة، لكان أُضيفَ نوعُه إلى الكتاب.

بغتةً، خطر ببالي أنَّني كنت لأستعين بمثال الطيور التي تعبر أحيانًا المحيط الأطلسيّ الشماليّ عالقةً في شباك الرياح، كي أشرح للأستراليّ شدَّة الريح، لمَّا سألني متعجِّبًا عن مدى قوَّتها حين تكون شديدة.

انظُروا:
النهارُ يُشرق

تسألني البائعةُ في قسم الطِّلاء عن المساحة التي أنوي طلاءها، فأجيبها: الغرفة وحجرة المعيشة. ثم تسألني عن اللون، فأختار الأبيض. **أبيض الجليد، أم الرخام، أم الملح، أو الثلج، أم أبيض خالصًا، أم أبيض الصوف، أم الجير، أم اللؤلؤ، أم أبيض الصَّدَف؟**

اخترتُ أبيضَ الجليد.

قالت وهي تتفحَّصني:

ـ إنَّه لونٌ يعكس موجات النور كلّها.

تذكَّرت فجأةً أنَّ أحد جدران غرفة المعيشة مغطًّى بورق حائط. قالت لي إنَّ ذلك لا يخلق أيَّ مشكل، بينما تمدّ لي حُقّ السائل الذي ينبغي أن أطلي به المساحة المذكورة. أمَّا البقيّةُ

فمجرَّد لهوٍ، إذ يكفي أن أجرَّ جوانب الورق اللاصق على الحائط. قلتُ لنفسي إنَّني قد أغتنم الفرصةَ في أن أُعيد طلاء المطبخ. سألتني عن طريقة تجهيز المطبخ، وهل هو مبلَّطٌ بالخزف. أجبتُها أن نعم: بلاطاتٌ برونزيَّة اللون. ثم أضَفتُ، إنَّه بلاطٌ من سنوات السبعينيَّات، وقد تضعضع. فهمَت مقصودي، ونصحتني أن أدهن البلاطات، بعد أن أنظِّفها بمُزيل الدَّهن. اقترحَت عليَّ كذلك طلاءَ أبواب الخزائن، وأطلعتني على كتالوج ألوان. أستطيع كذلك أن أقتني، من القسم المجاور، مقابضَ جديدة. أُصغي إليها. يُخيَّلُ إليَّ أنَّها تريد أن تُخبرني بأمرٍ ما. مرَّاتٍ، كادت أن تقلب الحوارَ، فتطرُقَ موضوعًا لا علاقة لها ببلاط الخزف أو تدرُّج الألوان.

بعد أن صفَّت أحقاق الطِّلاء على المنضدة، سطلَ طلاء، ولفَّافة طلي، وفُرَشًا.. وابتسمت لي.

ابتسمت لها أيضًا.

ـ أنتِ من أعانني في إنجاب طفلتي، في شهر مارس. كان وزنُها 3,8 كيلوغرامًا. ودام المخاض ستًّا وثلاثين ساعةً.

بدا عليها التردُّد.

أردت أن أشكركِ لأنَّكِ قرأتِ لي تلك القصيدة، حين كنت في المصحَّة. كانت القصيدة تتحدَّث عن أوراقٍ وعروقِ أوراقٍ تمرُّ، من خلالها، الشّمسُ.

أتَتني بقارورة زيتٍ، اقترحتْ عليَّ أن أدهن بها طاولة الطعام.

قالت:

ـ منذ ذلك اليوم، اشتريتُ ثلاثة دواوين شعريَّة، واستعرتُ من المكتبة عددًا منها.

أندهش أحيانًا لعدد الشعراء الذين يكتبون حول الأشجار. يجولون في الغابات، يقتعدون الأرض فيها، يقِفون تحت الأغصان، تطقطقُ تحت أقدامهم الأعواد، وتخشخشُ الأوراقُ الجافَّة، يتيهون في غاباتٍ مظلمة، يحلمون بألوان الخريف، وبغاباتٍ خلاء، تهتزُّ الأوراق إذ تداعبُها الريح، تذبل ثم تسقط.

ينبغي أن أحمي يدي أثناء الطليِ، لذلك اشتريت قفَّازًا.

في طريق العودة، تذكَّرت أنَّها سألتني، بعدما قرأتُ عليها القصيدة، أيَّ شجرةٍ يقصدُ الشاعر.

سألَت:

ـ ليس محدّدًا أيّ نوع؟

أجبتُها:

ـ كلّا، لا يشير الشاعر إلى ذلك.

ـ لعلَّها شجرةُ بلُّوط؟

ـ نعم، غير مستبعد.

على ذكر أشجار البلُّوط، ثمَّة، في مخطوط **الحقيقة بشأن النور**، فصلٌ مطوَّلٌ عن أشجار البلُّوط وعن عمرها الطويل مقارنةً بأعمار البشر. تحتلّ المقارنة بينِ الإنسان وغيره من الكائنات مكانًا بارزًا في المخطوط. وكما هو متوقَّع، تُشير الخالةُ إلى أنَّ

عمر الإنسانِ، قياسًا إلى شجرة البلُّوط، لا يعدو أن يكون برهةً عابرة.

بعض أشجار البلُّوط تبلغ عمر الخمسمائة سنة، أي أنَّها تفوق معدَّل أعمار البشر، بمقدار سبع مرَّاتٍ. إنَّ شجرة بلُّوطٍ زُرعت في ريف إنجلترا، على عهد الملكة إليزابيت الأولى، ما تزالُ قائمةً إلى اليوم. وبالتالي، قد شهدت هذه العجوز الجليلة حروبًا وأوبئةً عديدةً، أتت على أقاليم بأكملها. تحت أغصانها جلس كتَّابٌ شهيرون، ونظَّموا سونيتات، وتحتها دُبِّرت مكائدُ، وحُضِّرت خياناتٌ عظمى، والتقى عشَّاقٌ، وكُوِّنَ أطفالٌ، لم يكونوا جميعًا مرغوبًا فيهم. لم أستطع إلَّا التوقُّفَ مطوَّلًا عند الجملة التي تختم تأمُّلها الطويلَ في أشجار البلُّوط: **في الزمن الذي زُرعَت فيه تلك الشجرة، لم يكن الإنسان قد اكتشفَ بعدُ كلمة «صدفة»، ولم يكن باسكال قد وُلد بعد.**

حشرات

ها أنا ذي، كدتُ أبلغُ المنزل، وهي ذي أختي تتَّصل بي لتُخبرني أنَّها اشترت لي مصباحًا بمناسبة أعياد الميلاد.

ـ تستطيعين ضبط نور الأباجورة بحيث يضيءُ زوايا الحجرة وسقفَها.

ثم أرادت أن تعرفَ ما أصنع.

ذهبتُ إلى المتجر، أشتري طلاءً.. والآن أقود السيَّارة إلى بيتي، عبر شارع هرينغبروت.

ـ أنا مقابل دار المسنِّين غروند.

تسألني هل أنوي الشروع في طلاء المنزل، ولم يتبقَّ على أعياد الميلاد سوى ثلاثة أيَّامٍ، فأُجيبُها أنَّ ثمَّة من سيساعدني.

ـ زميلتي، ڤاكا، وصديقاتها في فريق الإنقاذ، عرضوا عليَّ المساعدة.

تعجَّبت ألَّا تحدِّثني عن الطقس. لكنَّها تركته للخاتمة: مجدَّدًا تغيَّرت التوقُّعات، وهذه المرَّة الأمور مذهلة.

ـ لحدود الساعة، ما زلنا نجهل قوَّة العاصفة المقبلة. يمكن أن تكون أقلّ عنفًا ممَّا تقوله أسوأُ التوقُّعات، لكِنْ أشدّ عنفًا ممَّا تقوله أفضلُها.

خفضَت صوتَها.

ـ على أيِّ حالٍ، لا ينبغي فقط لَمُّ كلّ الأشياء المعروضة في الحدائق وعلى الشرفات، بل يُتوقَّعُ أيضًا أن تَقتلع العاصفةُ أعمدةَ النور وتخرِّبَ أسلاكَ الكهرباء.

حين بلغتُ المنزل، حاملةً علبَ الصباغة، صادفتُ السائح الأستراليّ، فأمسك لي باب العمارة، لأتمكَّن من الدخول. كان مبلَّلًا من رأسه إلى قدميْه، وشعرُه يلمع ماءً. عاد لتوِّه من جولة. عرض عليَّ المساعدة في حمل سطل صباغةٍ، وسألني هل أنوي القيام بأشغال. أجبتُه أنَّني سأدهن شقَّتي. وبينما نرتقي الدرجات، أسرّ إليَّ بأنَّه معجبٌ بهذا الليل الجميل الطويل، وأنَّه متشوِّقٌ لمراقبة مواقع النجوم في سمائنا. إنَّها طريقةٌ عجيبةٌ في التعبير، **هذا الليل الجميل الطويل**، انتبهتُ إلى أنَّ السماء الملبَّدة منذ أسبوعيْن، تمنعنا من رؤية النجوم. عثَر على عنكبوتٍ، معلَّقةٍ إلى خيطِها، في الحمَّام، وهي الحشرة الوحيدة التي رآها منذ أن وصل البلاد.

أتذكَّر أنَّني، منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، قرأتُ مقالًا يصف غزوَ عناكبَ لمدينةٍ أستراليَّة، ملايين من العناكب انقضَّت على المدينة،

فغطّت بخيوطها وشباكها المباني والحدائق والناس.

كانت المنطقة قد تعرَّضت لفيضاناتٍ كبيرة، فاعتصمَت العناكبُ، من الماء، بقمم النباتات والأشجار. تدين بحياتها لشبكةٍ معقَّدةٍ، نسَجَتها صاعدةً الأشجار والنباتات الطويلة، ثم أسلمت نفسها للرِّيح.

قال الأستراليّ وهو يناولني سطل الطلاء:

ـ إن كنتِ تريدين من يمسك بك المرقاةَ، فلا تتردَّدي في طلبي.

سألت نفسي عمّا إذا كان ثمَّة فرصةٌ لأن يعرض عليَّ تدفئة يديّ المجمَّدتيْن. اتّكأتُ على إطار الباب. وفجأةً، وبعد صمتٍ دامَ عامًا، رنّ جرسُ الباب.

انحلال العقدة

أزاحت الرفيقاتُ الأثاث لكشف الجدران، ولففنَ البساط المزيَّن بورودٍ ذهبيَّة، وأنزلن صورة العذراء والطفل، ووضعنَها على السرير الكبير. كدن يفرغن من إزالة الحاجز بين المطبخ وغرفة المعيشة، وهنَّ الآن يعملن بهمَّةٍ في حمل الألواح إلى الرصيف. قصدت إلى المطبخ أنزعُ مقابض الخزانات. مفكّ البراغي في الدُّرج مع اللمبات الكهربائيَّة ومصباح الجيب. ثم، متَّبِعةً نصيحة البائعة في قسم الطلاء، حككت الباب بورق السنفرة. فاختفى الطلاءُ، وأشعَّ الخشبُ بلطائفَ عديدة.

اقتحم المطبخَ ضياء الشمس المائل. رسَمَ على الحائط، بجانب يوميَّة إمسكيب، مربَّعًا صغيرًا منيرًا، ظلَّ يتحرَّكُ، جانبيًا، طيلة الساعتيْن اللاحقتيْن.

يُخيَّل إليَّ أنَّني أسمع الخالة فيفا.

ـ يا صغيرتي دييا، كم من الناس ينتظرون طلوع النهار، واقفين عند نوافذهم، وكم هناك من ينتظرون المساء ليشهدوا هبوط الليل؟

إذ أُرجِع التفكيرَ، ينتابني الانطباع بأنَّها كلَّما كانت تزداد عمرًا يزداد هوسُها بالمصادفات التي تحسب نفسَها تراها في كلِّ مكانٍ، وكلِّ حين. يبدو لي أنَّ الصدفة، في نظرها، هي المفهوم الأكثر حسمًا في تاريخ التطوُّر.

ما انفكَّت تردِّد:

ـ تأمَّلي، يا عزيزتي دييا، كلّ هاته المصادفات.

كتبَت في المقدِّمة الموجزة وغير التامَّة، التي مهَّدت بها لمخطوط صُدفةٌ واتِّفاقات: **إنَّ حياة الإنسان خاضعةٌ لتعاضُدِ جملةٍ من الملابسات. لعلَّ أهمّ ملابساتٍ هي تلك التي تحيط بتكوُّنه أوَّلَ مرَّةٍ، لكنَّني اكتشفت، كذلك، أنَّ الصدفة تؤدِّي دورًا حاسمًا في عددٍ من مجالات الوجود المهمَّة.**

صدفةٌ واتّفاقات، هو تحديدًا المخطوط الذي يَعسر عليَّ الإحاطة به، أكثر من غيره. في الفصل الأخير، المعنون **بانحلال العقدة**، كانت على بُعد أميالٍ من بلوغ خلاصةٍ نهائيَّة. لا بل بالعكس، إنَّ سطورها تنطوي على بصمة العماء الكونيّ. شرحتُ لأختي أنَّ الخالة ظلَّت تنقِّب وتنبش على الصدفة حتى في أدقّ دقائق التفاصيل، وأنَّ تلك التفاصيل الدقيقة هي ما سيحدِّد مصائر حيواتنا. إنَّ كلمة تفصيل، في مذهب الخالة، صنوُ الخطّ الهاديّ. **ليست أصغر وحدة زمنيَّة هي اللحظة، ما دامت كلّ**

لحظةٍ تنطوي على سلسلةٍ من اللحظات الأخرى التي تنطوي على الصدفة التي تتحكّم في حياتنا كلّها.

أذكر أنَّني، في طريق عودتي إلى ريكيافيك، بعد أن ذهبنا، نرجُّ العظامَ، على قولِ أختي، حاولت الخالةُ، غير ما مرَّةٍ، ذكر هذا أو ذاك من أجدادنا الذين أتوا إلى العالم صدفةً أو معجزة. مجرَّدُ صدفةٍ كانت السبب في لقاء هذا بتلك، أو في ولادة هذه أو ذاك. كانت تردِّد: لم تكن الأمور مسطَّرةً على هذا النحو، لم يكن واردًا أن يلتقي هذان الفردان، بله أن يتحابَّا. كثيرٌ من أجدادنا وجدَّاتنا، كانوا قد وضعوا رِجلًا في القبر، وإذا بهم ينجحون في الإنجاب؛ إحدى جدَّاتنا كادت، وهي حاملٌ، أن تلقي بنفسها في ماء النهر المتموِّج في شمس المساء، وهذا يؤكِّد أنَّنا كدنا ألَّا نأتي إلى هذا العالم. صدفةٌ كبيرةٌ إذن هذه التي جعلتنا نجلس الآن، جنبًا إلى جنبٍ، في سيَّارة اللادا، في مكانٍ ما من مضيق هورتافيوردر، هي المرأة التي بلغت الخامسة والخمسين، وأنا مرافقتُها اليافعة. بلى، إنَّ اجتماعَنا الآن، هو محصِّلةُ متواليةٍ من الصدف التي تراكمت طيلةَ أجيال.

ـ مائة مليون حيوانٍ منويٍّ تتسابق لإخصاب بويضةٍ واحدة.

هكذا، ختمَت المرأةُ التي كانت سابقًا رئيسةً للقابلات، عرضَها حول صُدَف النشأة.

يكفيني أن أُمرِّر طبقةً من الدهان البرَّاق على خزانات المطبخ لتصير كالجديدة. قصدتُ إلى غرفة المعيشة أقتلع ورق الحائط. وجدت تحته ثلاث طبقاتٍ من الطلاء، مختلفةَ الألوان. فرغَت

الرفيقات من دهن طلاء التنعيم في غرفة النوم، وطلَيْن الصالونَ كلَّه، تقريبًا، بأوَّل طبقةٍ من الطلاء الأبيض.

عند النافذة، صارت الشمسُ الغاربة عند مستوى العين، نلمح منها كرةً صفراءَ مائلةً إلى البرتقاليّ، بين شجرتَي تنُّوبٍ في المقبرة. فوق القبور مباشرةً، أشعَّةٌ مذهَّبةٌ تلمعُ للحظاتٍ.

ما يزال النهار يقصُر. غدًا، تنقبُ الأمور.

لم تُخترع كلمة صدفة
حتى سنة 1605

ترِد كلمةُ صدفةٍ كثيرًا في المراسلة التي جمعت خالةَ أُمِّي بصديقتها غوينفير، حيث تناقشت المرأتان، بالطول والعرض، في مسألة **السببيَّة المذهلة التي تجمع أحداثًا، في غياب رابطٍ ظاهرٍ بينها**. تتساءل غوينفير: **أتكون الصدفةُ مفهومًا نخلط بينه وبين مفهوم الربّ؟** للأسف، لا أعثر في مسوَّدات الخالة على أيِّ جوابٍ لهذا السؤال.

تتحدَّث في إحدى رسائلها عن أبي النور، ذلك القابلُ الذي اكتَشفَتْ وجودَه، والذي تنوي أن تكتب عنه: جيسلي رايموند، المعروف باسم نوني. أعترِف أنَّني أضعت الخيطَ هنا: عند هذه النقطة من مراسلتهما. كفَّت خالةُ أُمِّي عن وضع مسوّدات. بالمقابل، يحمل ردُّ زميلتها الويلزيَّة، معلوماتٍ عن شخصٍ يُدعى رايموند نوناتوس. تصفِه كربٍّ مقدَّسٍ للقابلات، والحوامل

والمواخض. تبدأ هذه الرسالة على هذا النحو: **عودةً إلى الصدفة والاتِّفاقات الأثيرة لديك**. ثم تمضي غوينفير في الشرح، فتقول إنَّ أُمَّ هذا القدِّيس توفِّيت أثناء الوضع، وأنَّ ابنَها أتى إلى العالم بولادةٍ قيصريَّة. وقد كتبَت بحروفٍ كبيرةٍ بارزةٍ متموِّجة، على ورقها الأزرق الصافي، الذي يكاد يكون شفَّافًا: **إنَّ نعت نوناتوس، يعني الذي لم يولد.**

في آخر رسالةٍ بعثَت بها خالةُ أُمِّي إلى صديقتها، وأُعِيدت إليها، طرقَت أيضًا موضوع الصُدف. نقرأ فيها، من بين أشياء أخرى:

عزيزتي غوينفير، أثناء بحثي عن مادَّة «صدفة» في معجم لغة شكسبير الجميلة، اكتشفتُ أنَّ الكلمة لم تُخترع إلَّا سنة 1605.

حين ينطفئُ البشر
سيبقى النور

تسألني أختي بين الفينة والأخرى:

ـ أما زلتِ تنبشين في أوراق الخالة فيفا؟

ـ نعم، لقد طبعتُها على الحاسوب.

ـ مضيعةٌ للوقت، أليس كذلك؟

ـ بلى، بالتأكيد.

لطالما ظننتُ أنَّ **حياة حيوانيَّة، بحثٌ في سلوكات الكائن البشريّ**، هو المخطوط الأقدم. بينما لم أستطع الفصل بين المخطوطيْن الباقييْن: **صدفة واتِّفاقات**، و**الحقيقة بشأن النور**، أيُّهما أحدث! في أوّل مرَّةٍ سألتني فيها أختي أين وصلتُ، وهل تقدَّمتُ في بحوثي، أخبرتُها أنَّ مشروعَ خالة أُمّنا يهدف إلى كشف السلوك البشريّ، لكنَّها غيَّرت الاتِّجاه أثناء البحث، وانصرفت

إلى محاولة فهم النور. ثم ما لبثت أن غيَّرت الاتِّجاه مجدَّدًا، وصارت تكتب عن الصدفة.

أو ربَّما قامت بالعكس. غيَّرت الاتِّجاه من الصدفة إلى النور. لا أستطيع أن أجزم في مسار التغيير.

حتى إنَّني أخذت بالحسبان، لوهلةٍ، أن تكون قد اشتغلت على المخطوطات الثلاثة في آنٍ واحد.

أحد المعايير الذي يمكنه أن يسند محاولتي لتأريخ المخطوطات، هو إيمانُ جدَّتي بالكائن البشريّ، الإيمان الذي يخبو بقدر ما تتقدَّم في الكتابة. ففي **حياة حيوانيَّة**، تستطيع الحيوانات العيش والبقاء، دون مشكل، في غياب الإنسان؛ وفي منتصف **الحقيقة بشأن النور**، تستغني النباتات عن الإنسان تمامَ الاستغناء، بينما لا يستطيع هو العيش دونَها؛ ثم أخيرًا، في مخطوط **صدفة واتِّفاقات**، يستطيع الكون أن يستمرّ، دون أدنى صعوبة، في غياب الإنسان؛ وهذا ما حملني على الظنِّ في أنَّ **صدفة واتِّفاقات** هو آخر المخطوطات. على أنَّ السؤال يزداد قوَّةً وعُسرًا، لأنَّ الخالة تتساءل في كلِّ نصٍّ، من النصوص الثلاثة، عمَّا إذا كان للإنسان موضعٌ في هذا العالم، أم أنَّ وجودَه فائضٌ عن الحاجة!

يتوهَّمُ الإنسانُ أنَّ العصافير تغنِّي له، لكنْ حين يفنى الإنسانُ، ستواصل الغابات نموّها، والحيوانات ازدهارَها. وستواصل الطيور هجرتَها من قارَّةٍ إلى أخرى، عابرةً الحدودَ والمحيطات. ستعشِّش في كلِّ براحٍ، وكلِّ مرجٍ، وكلِّ جرف. لن

تضطرّ إلى اقتسام الثمار البرِّيَّة مع الإنسان، لأنَّه سيكون قد كفَّ عن صنع الرحيق والمربَّى. يلي هذا المقطع عرضٌ في طيران الطيور، حيث تختلط عناصرُ من علوم الأحياء وعلوم الفيزياء. تفصِّل فيه مختلف أشكال الأجنحة، وأبعادها قياسًا إلى الجسد. تلك التي تملك أجنحةً أطوَل، على شاكلة الخرشنة القطبيَّة، تستطيع أن تقطع مسافاتٍ أكبر. وبعضها، على شاكلة الإوزّ، يشقُّ عليها التحليق لثقلِ وزنها، وتضطرّ إلى الركض بسرعةٍ حتى ترتفع في الجوّ. وأخرى، مثل البفن الأطلسيّ، تسلِّم نفسها لتيَّارات الهواء الصاعدة من جدران الجروف. وأهمّ ما يميِّز هذه الأخيرة هو حدَّةُ النظر. تتساءلُ الخالةُ عقب ذلك عن المعنى الذي سيتَّخذه مفهوم الموطِن، حين يُخلي الإنسانُ الكوكبَ. هل موطنُ الطيور هو موئلها حيث تقضي فصل الشتاء، أم هو حَضنَتُها حيث تبيض وتفرِّخ وتحضن فراخها؟

تخلص إلى نتيجةٍ قاطعةٍ واضحة: **كلّ الإشارات تدلُّ على أنَّ الإنسان هو الكائن الأشدُّ هشاشةً وزوالًا، من بين كلِّ الأجناس التي حملتها الأرض.**

حين ينطفئ الإنسانُ سيستمرّ النور، ذلكم ما تتوقَّعه في الحقيقة بشأن النور.

إن حاولتُ التأريخ للمخطوطات، اعتمادًا على أسلوبها، فأرجِّح أن يكون مخطوط النور هو أحدثُها. ففي مخطوط **صدفة واتِّفاقات**، ينتابنا الانطباع بأنَّ الخالة تختار الموضوعات عشوائيًّا، كما يَستخرج ساحرٌ الأوراق من قبّعته، بينما في مخطوط **الحقيقة بشأن النور**، يبدو النصّ كأنَّما يتشظَّى، لينحلّ في

نهاية المطاف. وما تزال الفراغات البيضاء تتكاثر وتتعدَّد على امتداد الصفحات، وتتباعد الشِّقَّةُ بين الكلمات والجُمل. وعند نهاية المخطوط، تتباعد الروابط بين حروف بعض الكلمات، حتى لتبدوَ تلك الحروف وحيدةً، متخلّى عنها في أماكن خلاء. أتصفَّح، صفحةً بعد أخرى، أوراقًا تكاد تكون بيضاء، متسائلةً عمَّا إذا كانت تنتمي بالفعل إلى المخطوط، أم أنَّها حطَّت هناكَ خطأً! في الصفحات الأخيرة، ليس ثمّة سوى بضع كلماتٍ مبعثرة، حتى نبلغ الخاتمة.

تحت

سماءٍ

جديدةٍ

أرضٌ

جديدة

نسمع

ط ائ رًا.

ظننت في البداية أنَّ المخطوط الذي رفضَه الناشر هو **حياةٌ حيوانيَّة**، الكتاب الذي يستكشِف قدرات الثدييِّ المسمَّى إنسانًا. أمَّا الآن، فأجنَح إلى الظنِّ أنَّ الرفضَ كان نصيبَ أكثر النصوص تشذُّرًا ـ **الحقيقة بشأن النور**، حيث يختفي الإنسان، ولا يترك خلفَه غير النور.

خطّاطة السلوك الإنسانيّ

مؤخَّرًا، عثرتُ على أوراقٍ كبيرةٍ من الورق المشمَّع، ملفوفةً بعضُها على بعضٍ، في عمق الدُّرْج الأسفل من الصوان، بجانب علبة الأزرار ووساد الإبر؛ الحقُّ، كان ثمّة لفافةٌ كاملةٌ من الورق، أعياني التقليبُ فيها. وإذ فتحتُ تلك الأوراق، اكتشفتُ فيها كثيرًا من الرسوم بقلم الرصاص، جُمِعت بشريطٍ لاصق. كان واضحًا أنَّ الأمر يتعلَّق بنموذج رسم، أو تطريز، تنوي الخالة العمل عليه. على أنَّنا لا نستطيع أنْ نستخرج منها أيّ نموذجٍ واضحٍ، ولا تنسيقٍ أو منطق، أو موتيفٍ شائع. لا بدَّ أنَّ الخالةَ ظلَّت تُنجز هذه الرسوم، رهنًا للإلهام، واكتفت بجمعها تدريجيًّا. وفي بعض المواضع، تحدِّد تقنيَّة التطريز ولون الخيط: عقدة الصليب، عقدةٌ خلفيَّةٌ بنفسجيَّة، غرزة ساتانٍ خضراء، غرزة سلسلة، غرزة حلقة، غرزةٌ أماميَّة، غرزة شوكة. بيِّنٌ أنَّها كانت تنوي استعمال كلّ العقد، وجميع تقنيَّات التطريز، إذ تُشير إلى

عُقدٍ طويلةٍ وأخرى قصيرة، وعقدٍ مجمَّعةٍ وأخرى متبادلة. أحيانًا، تغيِّر التوجّه 180 درجةً، وتقلب الفكرة وهي في منتصف السطر. على أنَّ أكثر ما أدهشني هو الفراغات البيضاء التي اكتفت بأن تدوِّن فيها كلمة نور. وما يزال عدد تلك الفراغات يزداد ازديادًا بيِّنًا، على امتداد الأوراق، وينتابنا الانطباع بأنَّ الأشكال تتضعضع، ممَّا يُضفي على العمل طابعًا ملغَّزًا أكثر فأكثر. ولمَّا نشرتُ الرسم، برمَّته، على المكتب، هُيِّءَ لي أنَّني أرى الآثار التي تخلِّفها الغربان التي تأتي لتتقافز على طبقة الثلج الناعمة التي تغطِّي قبر الخالة فيفا. أعلى الوثيقة، كتبَت بيدٍ مرتعشة:

خطَّاطة السلوك البشريّ

لم يتَح لي الوقت بعدُ لفحص كلّ ما خلَّفَتهُ. مثلًا، لم يكن لي سوى مرورٍ خفيفٍ على ما خزَّنَته في القبو، لكنَّني لم أعثر على أيِّ تطريزٍ يوافق الرسم المذكور. أتذكَّر يوم ذهبت لعيادتها في المستشفى، حدَّثتني يومها عن قطعةٍ أخيرة، وطلبت منِّي إتمامَها. كانت تتكلَّم بالألغاز. تذكرُ العقدةَ الأخيرة، وتقول إنَّه ينبغي ربطُ الخيوط الأخيرة، وقطعُها. بحسبها، خُلقَت يداي لمثل هذا العمل. ظننتُها تقصد مهنة القابلة، خاصَّة أنَّ الكلمات المختارة تدعم هذا الفهم؛ : العُقَد، الغرَز، الحُزم، الحبل الرابط بين الأمّ والطفل... كأنَّما كانت ترى في مساريَ المهنيَّ استمرارًا لمسارها.

على أنِّي اليومَ أميَل إلى القول إنَّ هذا الرسمَ امتدادٌ لمخطوط النور الذي أوقفَت الخالة فيفا كتابتَه، اللَّهمَّ إلَّا إن كانت قد تخلَّت عن الكتابة من الأصل، إن كانت قد استنزفت رصيدها من

الكلمات، كما كان يحلو لها أن تقول، واتَّجهت بدلًا من ذلك إلى التطريز. كتبَت في رسالتها الأخيرة إلى مراسلتها الويلزيَّة، الرسالة التي عادت إليها إثر وفاة غوينفير: **لقد استسلمت أمامَ اللغة. أكملت الآن تخطيط تطريزٍ كبيرٍ أنوي القيام به متوسِّلةً بتقنيَّاتٍ متحرِّرةٍ من كلِّ إكراه. أصعب ما يُنجَز فيه هو النور.**

وكانت تقول لي: **هذا العالم لم يعد بحاجةٍ إلى كلماتٍ يا عزيزتي ديبا، فيه ما يكفي منها.**

يوليسوس بريكي

بينما أنتهي من قلع ورق الحائط، رنَّ الهاتف.

بدا لي أنَّني أستمع إلى هدير أمواجٍ وصيحات طيورٍ في خلفيَّة الاتِّصال.

ـ ألو، أنا كيتل.

ـ كيتل؟

ـ الكهربائيّ.

سألني أوَّلًا هل احترقَت أيّ لمبةٍ منذ أمس.

ـ لا، لم تحترق أيّ لمبة.

الاتِّصال سيِّء، كلامه يتقطَّع. أفهم أحيانًا أنَّه يحتاج أن يستنشق الهواء، وأنَّه خرج في جولةٍ بالسيَّارة. سار، بدايةً، حتى آخر الشارع حيث يسكن، وظلَّ يتسكَّع في الحيّ، غير عارفٍ إلى أين يمضي، ثم فجأةً ألفى نفسَه أمام بيت أُمّه، منزل طفولته الذي

بيع منذ وقتٍ قريب، ثم انطلق صوب فجّ فرنغسلين. وبعد أن عبرَ البراح، بلغ قرية إيررباكي. قبالة سجن ليتلا هرين، كلَّم زوجته سايديس، ليعلِمها أنَّه سيتأخَّر في العودة. ثم نزل إلى الشاطئ يتأمَّل الأمواج. الحقّ أنَّه لم يتأمَّلها فعلًا، لأنَّ الليل الشتويّ، مضافًا إليه ستار الثلج، كان يحجب الرؤيةَ؛ الأصوبُ إذن قولُ إنَّه أنصت إلى ضجيج المحيط.

والآن، هو ذا في السيَّارة عائدٌ إلى ريكيافيك.

سألتُه عن حال الطفل، ثم حال الأمّ.

قال:

ـ الطفل بخير.

خيَّم الصمت في الجانب الآخر من الهاتف. تهيَّأ لي أنَّ الخطّ انقطع.

لكنَّه استأنف:

ـ أعرف ما ستقوله لي سايديس حين أعود. كلَّما خرجتُ، تتخيَّل أنَّني لن أعود. لذلك ستقول لي: أعرف أنَّك لا ترغب في العودة.

قلت:

ـ الاهتمامُ برضيعٍ أمرٌ صعبٌ ومرهق.

سمعته يتنهَّد بعمقٍ في الهاتف.

ـ في الواقع، أريد أن أعرف ما إذا كان بإمكانك المجيء إلى المنزل، للحديث معها.

ـ لِمَ لا تتَّصل بخدمة القابلات المنزليَّة التي حدَّثتُك عنها؟

ـ لقد وافقَتْ على أن تزورينا أنتِ في المنزل. لا أطلب منكِ أن تأتي بصفتكِ قابلةً، وإنَّما بصفتكِ إنسانًا.

فكَّرت برهةً.

ـ تردِّد طيلة الوقت أنَّ يوليسيس بريكي وقد وُلد، صار الآن منذورًا للموت. أجيبها أنَّه لن يموت الآن، وأنَّه قد يعيش طويلًا، ربَّما تسعةً وثمانين عامًا، كما عاش جدُّه! تجيبني أنَّ موتَه الآن أو لاحقًا ليس هو المسألة. سيموت. ثم تسألني: هل أرغب في أن آتي بإنسانٍ إلى هذا العالم، ثم أتركَه فيه؟ أتخلَّى عنه، ليواجه نقص الماء، والتلوُّث، والڤيروسات؟ أجيبُها: لكنَّه قد وُلِد يا سايديس.

أطفأ كيتل المحرِّك ونزل من السيَّارة، ثم صفق بابها.

قال مجمِلًا الحديث:

ـ أنا حائر.

وعدتُه أن أمرَّ عليه في غضون ساعة.

نزعت عارضات الستائر، واستللت منها الحلقات. على الستائر أشكالٌ شبيهةٌ بقطرات مطرٍ كبيرة.

تعزَّز فريقُ الإنقاذ بأعضاءٍ جدد. بدأت الرفيقات الآن، وعددهُنَّ أربع، في صباغة الغرفة.

أن تأكل، وتشرب، وتنام، وتتواصل، وتُشارك، وتكتشف

لمّا كنت قد اشتغلتُ طيلةَ صيفٍ في خدمة العيادة المنزليَّة، فإنّني أعرف ما ينتظرني: امرأةٌ شاحبة البشرة، مزرقَّةُ الشفتيْن، بهوٌ تتراكم فيه الأحذية، شقَّةٌ تفوح برائحة الانغلاق، مشاعيعُ مشغَّلةٌ بأعلى قدرتِها، نوافذُ مغلقةٌ، أمٌّ ولدت حديثًا وتشعر بألمٍ في ثديها، رضيعٌ تؤلمه بطنُه.. وعلى طاولة المطبخ علبة بيتزا مفتوحة، بقيت فيها قطعةٌ واحدة، وأنا أقول بلا مواربةٍ: إنَّ «البيرونات» مضرَّةٌ بالرضَّع.

استقبلني الكهربائيّ في العتبة، أغلق البابَ خلفَه، وبسط لي الوضعَ بعجالةٍ، وصوتٍ خفيض:

ـ إنّها لا تكفُّ عن البكاء...

ثم أضاف بعد لحظة تردُّد:

ـ وأنا أيضًا. نبكي معًا.. هل هذا طبيعيّ؟

لم يقل لي:

ـ أنا كسائر البشر، أحبُّ، وأبكي، وأتألَّم.

أجبته:

ـ يُستحسن أن تستشيرا طبيبًا نفسيًّا.

بعد أن غسلتُ يديَّ وسلَّمتُ على الأمّ، انحنيت على مهد الصبيّ.

الطفل نائمٌ، وراحتاه مقبوضتان. خطر ببالي الفصل الذي تتحدَّث فيه الخالة عن نضج الإنسان البطيء.

بينما تطرُد الفقمةُ طفلها، وتنهره بأنيابها، ما إنْ يبلغ شهرًا ونصف الشهر، فإنَّ أسابيعَ طفلِ الإنسان الأولى تكاد لا تشهد حدثًا يُذكر؛ إذ يكتفي بالنوم، والرضاعة، والتبوُّل، والتبرُّز.

أجلسُ، وأسأل سايديس عن حالها.

أعرف هواجس الأمَّهات اللواتي ينجبن حديثًا، إنَّهنَّ يخشين العناية بكائنٍ صغيرٍ شديد الهشاشة، ومجهولِ الطبيعة، ويخشين أن يُحرمنَ إلى الأبد من إمكان أن يكنَّ لوحدهنَّ.

قالت:

ـ كنت أنوي أن أقضي آخر صيفٍ لي بدون أطفالٍ، في التخييم والسياحة الجبليَّة، لكنَّني لم أستطع لإحساسي الدائم بالغثيان.

أعرف بالتجربة أنَّ من الشائع أن تكون المرأةُ مستعدَّةً

لإنجاب طفلٍ، كما أنَّ من الشائع ألَّا تكون. أخذ الزوج يتأمَّلنا، على التوالي، ثم قرَّر أن يذهب إلى المطبخ ليتركنا نتحدَّث على راحتنا. يتناهى إليَّ صوته منهمكًا في عمل شيء، يسيل الماء في الحوض، وتتصادم صحونٌ. . إنَّه يغسل الأواني.

ـ في الصيف الماضي، وددتُ لو أقضي ليالي بيضاء، كنت أحلم أن أتأمَّل الشمسَ تغربُ وتشرقُ من فورها، لكنَّني في كلِّ ليلةٍ كنتُ أنهارُ ما إن تبلغ الساعة العاشرة والنصف مساء. وددت لو أخيِّم على ضفَّة جدولٍ، وأثرثر على نار موقدِ بريموس. رغبت في أن أتسلَّق جبل إسيا.

عطس الرضيعُ واستيقظ.

خطر لي مجدَّدًا الفصل من مخطوط حياة حيوانيَّة، المعنون بـ **الإنسان ينضج أبطأ من غيره من الحيوانات.**

يحتاج صغير الإنسان بين شهريْن إلى ثلاثة ليتعلَّم الحفاظ على رأسه قائمًا، والابتسام للناس الذين يبتسمون له، ويحتاج زمنًا مماثلًا ليكتشف أنَّ لديه يديْن.

قلت لها:

ـ لا شيء يمنعكِ من القيام بهذه الأشياء الصيفَ المقبل، تستطيعين أن تتأمَّلي الشمس تغرب وتشرق من فورها، وتستطيعين أن تتجوَّلي في الجبال ومعك كظيمةٌ مليئةٌ بالشوكولا الساخنة. تستطيعين تأمُّل مضيق سوندن، جالسةً على صخرة.

أجابتني بتنهيدة.

ـ حين فارقني الغثيان، كنت قد صرت ثقيلةً على المشْي في

الجبال، ثم إنَّ الخريف كان قد حلَّ، وأثلجت السماءُ على جبل إسيا.

يتثاءب الرضيع ويتجهَّم.

أسمع الكهربائيَّ يفتح باب المدخل، الثلج يقرقع عند قدميْه، غطاء حاوية الأزبال يصفق. . ثم لحظةً بعد ذلك، يدخُل ويغلق الباب خلفَه. أشير له. يدنو من زوجته، ويربّت على كتفها وقد عقدَ المئزر على بطنه.

رافقني حتى العتبة، وسحب الباب خلفَه، كما فعل لحظة قدومي. البردُ قارس.

سألني:

ـ هل أدركتُ مقصده؟

ينظر إلى السماء خلفي، ويفرك يديْه، كأنَّما ليبُثَّ فيهما الحياة. ثم يدخلهُما إلى جيبَيْ سرواله.

ـ أحاول أن أعتني بها، لتتمكَّن من العناية بالطفل. أقول لها: سايديس، ألا ترين أنَّ من الجيِّد أن يكون الإنسان على قيد الحياة؟ أن يأكل، ويشرب، وينام، ويتواصل، ويشارك، ويكتشف؟ قبل قليل، حين أخرجتُ النفايات، صادفت قطّ الجيران، أتى يحتكّ بساقي وهو يموء.

مسحَ الكهربائيّ عينيْه بطرف قميصه الذي يتجاوز كنزَتَه.

ـ وإليكِ ما قالته لي حين أخبرتها بذلك: لنَغنَم تلك اللحظات قبل أن تنطفئَ الشمسُ.

أعطيتُه رقمَ هاتفٍ يتَّصل به.

ثورة، وخبز، وزمن، ورَيبة، وعدالة، وحقيقة، وجزيرة، وألمٌ، وشجاعة

الآن، وقد انصرفتْ ڤاكا ورفيقاتُها، صرتُ وحيدةً. فتحت دولاب الملابس، وبسطت على السرير فساتين الخالة، ثم طويتُها، فستانًا فستانًا، لأصنعَ منها ثلاث رزم: أولاها لفائدة جمعيَّة مساعدة الأمَّهات، وثانيتُها للصليب الأحمر، والثالثة لجيش الخلاص. ولم أحتفظ لنفسي سوى بفستانَيْن: الأخضر ذو الحزام، والأسود ذو الياقة المطرَّزة بالجواهر. لبست الأسودَ. ينبغي أن أضيِّقه من جهة الخصر والصدر. أحضرتُ وسادَ الإبر، وعلَّمت بعض النقط في المواضع المناسبة.

يعرض لي أحيانًا أن أولِّد أطفالًا، كان آباؤهم عشَّاقًا لي. حتى إنَّني كنت مداوِمةً في اليوم الذي أتى فيه الرجلُ الذي كان

يفترض أن يكون أبًا لطفلي، سنتَيْن بعد فراقنا. كان مخاضُ زوجته قد انطلق، فَقُدتُه إلى قاعة الفحص حيث زوجتُه، وصافحتُهما معًا. استبقى يدي في يده ثوانيَ، وشعرتُ بانزعاجه، ثم غادرتُ الحجرة، فلحقني، أو بالأحرى لاحقني.

اقترحتُ عليه أن يطلبَ قابلةً أخرى.

فقال لي:

ـ لا فائدة.

ثم بعد تردُّد، أضاف:

ـ كيف حالك؟

ـ بخير.

سألته السؤالَ نفسَه:

ـ بخير.

صادفتُه، منذ أيَّام في المسبح. كان يسير محاذيًا المسبح، ممسكًا بيد صبيَّةٍ، طوَّقت ذراعيْها عوَّاماتٌ، يقودها إلى حوض الأطفال. بقي يراقبُها لحظاتٍ. ثم أبصرتُه يدنو باتِّجاهي، وأنا جالسةٌ في حوض جاكوزي. نزل بحذرٍ الدرجات الغاطسة في الماء الحارّ، أغلق عينيْه، ومكث ساكنًا مدَّةً من الزمن. ثم فتح عينيْه ليراقب الصبيَّةَ من بعيد. لوَّحَتْ له بإشارةٍ من يدها، فردَّ عليها بإشارة. وإذَّاك أبصرني. بحثَ عن كلماتٍ مناسبة.

ـ ما زلت تشتغلين في مصحَّة التوليد؟

أجبتُه نعم.

فضلًا عن ابنِه، ذي الرابعة عشرة، الذي قبِلتُه، والصغيرة التي تلعب في الحوض مع الأطفال، ويبدو أنَّها قد لهَت عن والدها! لديه طفلةٌ أخرى لم تتجاوز السنة من عمرها.

غطس في الماء حتى الذقن.

ولمَّا استعاد وضعَه الأوَّلَ، نظر إليَّ وسألني:

ـ وأنتِ، هل لديك أطفال؟

ـ لا، ليس لديَّ أطفال.

راقب ابنتَه مجدَّدًا. كانت في مأمن.

قابلتُهما مرَّةً أخرى عند الاستقبال، وأنا أُعيد مفتاح المستودع، فأخرَج صورتيْن لطفليْه الآخريْن، ليُرينيهما.

كانت الساعة الثانية صباحًا حين فرغتُ من أولى طبقات الطلاء في غرفة المعيشة. قفَلت سطل الطِّلاء، ونظَّفت لفافة الطَّلْي. تهيَّأ لي أنَّني أسمع ضجيجًا في الطابق، أظنُّ أنَّ السائح القادم من الطرف الآخر من العالم ليس نائمًا.

حين قابلتُه على الدرج، ذاك اليوم، قال لي إنَّ النوم يعسر عليه، بسبب فارق التوقيت. كان مندهشًا من عدم إمكان القراءة، دون مصباحٍ، مع أنَّنا في عزِّ النهار. ثم سألني هل يقضي الناس صيفَهم هنا، في القراءة في حدائقهم؟ ففكَّرتُ: هذا البلد ليس من تلك البلدان التي تهبُّ فيها نسمةُ ريحٍ لتداعب أوراق كتابٍ، أو تعبر غيمةُ السماءَ، فترقُص على قصيدةٍ.

أجبتُه:

ـ نادرٌ أن نقرأ هنا في الهواء الطلق.

في نهاية المطاف، لست متأكِّدةً ممَّا إذا كنت قد شدَّدت بما يكفي على عنف العاصفة التي تتهيَّأُ في الأفق.

نمت. استيقظتُ منتفضَةً بسبب طنين ذبابة، أوقدت مصباح السرير. قمت من فراشي، وتناولت من المكتبة ديوان شعرٍ، أتصفَّحُه باحثةً عن أفق. أشياءُ كثيرةٌ ربطها الإنسان بهذا الخطّ البعيد: سفنٌ، السماء، الغريب، البُعد، الثورة، الخبز، الزمن، الشكّ، العدالة، الحقيقة، جزيرةٌ، الألمُ، الشجاعة.

ثقبٌ أسود

أنا مستلقيةٌ على سريري. يرسمُ إطارُ النافذة على الجدار ظلًّا في شكل صليب.

أمسِ، قبل أن تنصرف ڤاكا ورفيقاتها، ساعدنني في نقل المكتب من الغرفة إلى الصالون، مكانَ الكنبة التي خلَّصنني منها. إنَّه يتناسبُ تمام التناسب مع جدار المكتبة. ومكَّنتني المساحة المحرَّرة في غرفة النوم من تغيير مكان السرير، فصرت أستطيع الآن فتح باب الغرفة على مصراعيْه. اليوم، أرتِّبُ الكتب.

قالت لي ڤاكا بعد انصراف صديقاتها:

ـ لم أستطع إلَّا أن ألاحظ أنَّ لديكِ شجرةَ تنّوبٍ اصطناعيَّةً، وكرتونةً مليئةً بالديكورات.

أرادت أن ننصب الشجرةَ، فذهبت آتي بها، بينما تحمل هي كرتونة الكُراتِ والأكاليل المضيئة.

كانت متحمِّسَةً جدًّا.

قالت مبتهجةً:

ـ كأنّنا في المتحف الوطنيّ!

نزلت أسفل العمارة لآتي بالجريدة، وتصفّحتُها بسرعةٍ وأنا أحمّص الخبز. توقّف بصري عند فقرةٍ أثارت فضولي.

في قلب الثقب الأسود يلمع ضوءٌ. يشرح النصّ الوجيزُ أنّهم استطاعوا، لأوّلِ مرّةٍ، تصوير ثقبٍ أسود، فظهَر أنَّ في قلبِه ضوءًا. الصورة ليست شديدة الوضوح، تُظِهرُ سطحًا أسودَ محبّبًا، أثار في ذهني ـ لا أدري لمَ! صورةَ تخطيطٍ بالصدى لرَحِم، وفي الوسط منه تبرز مساحةٌ دائريّةٌ منيرةٌ، تذكّرُ بنهاية نفق.

كانت خالة أمّي على الطريق الصحيحة. **الطريق الصحيحة** هو، تحديدًا، التعبير الذي استعملَته في آخر رسائلها إلى غوينفير. فقد كتبَت: **في وسط العتمة، في قلب الظلمات يلتمع النور.**

يتناهى إليَّ ضجيجٌ في الدرج، ولحظةً بعد ذلك أسمع طرْقًا على بابي. أربط شعري بمطّاطٍ، وأقصد إلى الباب. جاري، ساكنُ العلّيّة، يمدّ لي غطاء سرير، ويشكرني على إعارته إيّاه.

قال:

ـ لقد كويتُ كلّ شيء.

وإذْ لم تبدُ عليه الرغبة في الانصراف، فقد دعوتُه إلى الدخول. داعب بأطراف أصابعه ورق الفينيل في البهو، قائلًا إنَّ التنجيد نفسَه كان في بيت جدّته.

مسح الصالون بنظرته، وتوقّف عند المكتبة. تناول كتابًا لبورخيس قائلًا:

ـ عندي نفسُه. ثم تفحَّص مجموعتي من الأسطوانات، فتوقَّف عند العزاء رقم 3 ري بيمول كُبرى، لفرانز لِيست، وقال:

ـ عندي نفسه. ثم استدار إلى النافذة يحدِّق في الخارج. نورسٌ أصفرُ المنقار، أشعث الريش، جاثمٌ على عمود نور، أتابعُه ينزل محلِّقًا صوب الرصيف، ضاربًا بجناحيْه بين السيَّارات في وضوح الجوّ المصفرّ.

تركت نافذة الصالون مفتوحةً أمسِ لتهوية المكان، فحطَّت على حاشيتها قطعةُ جليد. ربَّما يجدر بي أن أنقل نبتة البيغونيا.

قال ضيفي:

ـ خُيِّل لي، منذ قليل، أنَّني لمحتُ شُبهةً من شمسٍ في النافذة. شعاعًا أحمر دقيقًا، لم يدُم إلَّا برهةً أو تكاد.

أضبِّط سوارَ خالة أمِّي على معصمي. شجرةُ التنّوب منصوبةٌ وسط البساط المزيَّن بأشكال الزهور المذهَّبة. هذه أوَّل مرَّةٍ أزيِّن فيها شقَّتي لأعياد الميلاد.

سألتُ الأستراليّ أيّ يومٍ وُلد ابنُه.

قال:

ـ 17 يوليوز، في عزِّ الشتاء.

سألته هل هو ولدٌ مرهف الإحساس.

ـ نعم، مثل أمّه.

هل يحضِّر له فطورَه:

ـ نعم.

هل يقلق عليه؟

ـ أجل.

استعاد ذهني بغتةً شظيَّةً من الحلم الذي رأيتُه أمس، سمعت، في منامي، صوت الخالة تتحدَّث إليَّ، ثم استيقظتُ: **كلّ الناس يا عزيزتي ديبا، حدَّبَتهم الحياةُ.**

لامسَت كتفُ الأستراليّ تقريبًا كتفي، فلم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير: ثم؟ وبعد؟

لم يُبصر النورَ

بقي لي يومُ عملٍ أخيرٌ قبل أعياد الميلاد. وقَّعتُ الحضورَ، ولبست وزرتي. في مكتب الاستقبال، تجلس قابلتان، أنهتا للتوِّ عملهما، وتبدوان في غاية الإنهاك. لاحظت أنَّ إحداهنَّ بكَت. استقبلتني رئيسة القسم بهيأةٍ جادَّة، وطلبت منِّي مرافقتها إلى مكتبها. قالت لي إنَّ طفلًا مات أثناء الولادة أمس. تريد منِّي أن أعتنيَ بالأمِّ الثكلى.

ـ تلِحُّ في أن تعتني بها أنتِ دون غيرك.

أخذت الرئيسة تطالعني، ثم أضافت:

ـ قالت لي إنَّها قد صادفتكِ لحظةَ وصولها، وأنَّكِ قد ساعدتِها في ركوب المصعد.

جعلتُ أفكِّر.

قلتُ:

ـ لكنَّ ذلك كان منذ ثلاثة أيَّام! ألم تنجب حتى الليلة؟

ـ نعم، يبدو ذلك. كان مخاضًا طويلًا.

قالت إنَّ مشكلةً حدثت أثناء تغيير المداومة، وإنَّ سوء تفاهمٍ حدث.

أضافت:

ـ لقد حدَّدتُ موعد اجتماعٍ لفحص مدى الالتزام بالقواعد.

صمتَت برهةً، ثم استأنفت:

ـ لا يريد الأبَوَان استقبال القسّ.

ـ متى ينبغي أن تغادر؟

ـ كان يُفترض ألَّا تغادر المصحَّة إلَّا غدًا، لكنَّها مصرَّةٌ على الخروج اليوم.

بدت الرئيسة متردِّدة.

قالت:

ـ إنَّها لا تبكي.

طرقتُ بابَ الغرفة بلُطفٍ قبل أن أفتحه.

المرأة جالسةٌ على طرف السرير، خافضةَ العينيْن. لقد استحمَّت، وما يزال شعرها مبلَّلًا. لم تلمس فطورَها، وما يزال الطبق على الطاولة لم يُمسّ. حساء شعير، وخبزٌ بشطائر الجبن.

بجانب سريرها، يرقد الطفل في مهدٍ مبرَّد.

الأب يراقب طفلَه، جالسًا على مقعد. لمَّا رآني دخلتُ، قام من مقعده واتَّجه إلى النافذة. لامسني في طريقه، ورجاني أن أعذرَه.

قال:

ـ عُذرًا.

ظلَّ واقفًا برهةً أمام زجاج النافذة، يُحدِّق في موقف السيَّارات. ثم تناول ملابسَ زوجته ووضعها على السرير قبل أن ينطلق ليأتيَ بجدَّتَي الطّفل، وجدِّه، كي يودِّعوه جميعًا.

قرَّبتُ الكرسيّ، وجلست إلى جانب المرأة.

بدأتْ:

ـ لم نخبِر بنتَنا بعدُ أنَّ أخاها لن يرافقنا إلى المنزل.

قلت لها:

ـ طفلكم العزيز.

ـ في هذه الأثناء، هي تتعلَّم في المدرسة صيغةَ المحايد.

أخذتُ أنزع الأنابيب من ظاهر كفِّها.

قالت دون أن تنظر إلى المهد:

ـ لقد ناضل طويلًا ليظلَّ على قيد الحياة.

لُذت بالصمت، جالسةً إلى جانبها.

ـ الليلةَ كان ما يزال يخفق في أحشائي قلبان.

كانت تتحدَّث، وهي تُحرِّك أصابعها على شعرها، كأنَّما تحاول فكّ عقدةٍ بأطراف أصابعها، خطرت ببالي صورة عازفة قيثار.

ـ لقد وزنّاه، 3 كيلوغراماتٍ و750 غرامًا، وطوله 53 سنتمترًا. استوفى فترةَ الحمل. صبيٌّ كبيرٌ بذراعيْن طويلتيْن. لن

أعلمَ أبدًا ما إذا كان قد ورث عن أبيه عسر القراءة.

هي تتحدَّث.

أنا صامتة.

قالت وهي تضع قدميْها على الأرض لتشرع في ارتداء ملابسها:

ـ لقد غسلوا شعرَه ونشَّفوه. كان متموِّجًا.

حذاؤها على الأرض، أسفلَ السرير. حذاءٌ طويلٌ بسحَّابٍ.

ـ سمعت إحدى المعالِجات تقول إنَّه كان راقدًا على الجانب الأيسر.

ارتدَت حذاءَها.

ـ الآن، أعرف لِمَ لَمْ أكن أستطيع الرقاد على هذا الجانب.

حين عدتُ إلى بيتي، ملأتُ حوض الاستحمام. انزلقت في الماء، غائصةً في الأعماق المظلمة التي أتينا منها، في بركِ البدءِ الموحلة.

كتبَت الخالةُ فيفا في إحدى رسائلها إلى غوينفير:

ـ أحاول أن أفهم الظواهر العابرة الهشَّة، كظاهرة الحياة نفسها.

كلّ حياةٍ تشتعل هي عالمٌ. كلُّ حياةٍ تنطفئ هي مجرَّة.

لم يعد يسكن في العنوان المذكور

تسألني أختي:

ـ وإذن، هل خلصتِ إلى نتيجةٍ بخصوص أبحاث الخالة فيفا؟

ـ نعم ولا.

ـ هل كانت تؤمن بالإنسان؟

ـ نعم ولا.

ـ هل كانت تلمح شعاع نور؟

ـ مرَّةً أخرى، نعم ولا.

أُفكِّر في الفصل الذي يحمل عنوان آخر **أيَّام الإنسان على الأرض**، من مخطوط **حياة حيوانيَّة**، وأضيف:

ـ بحسبها، لا مفرّ للإنسانيَّة من تدمير نفسها.

غير أنَّ نصّ خالة أمّي ليس يخلو من تناقضات. كثيرًا ما

تضادُّ الأفكار المعروضة في هذا الفصل، مع تلك المعروضة في غيره. بوسعي أن أقول لأختي إنَّ الخالة كانت تشكُّ في قيمة سرديَّتها، وإنَّها كانت تنفق وقتَها في مساءلة معارفها، بل في نقضِها. أو، أحيانًا، كانت تعنُّ لها فجأةً مقاربةٌ يمكنُها أن تضيف إضاءةً جديدةً لهذا الموضوع أو ذاك، وترفضُ أن تصوغ نتائج، لأنَّ الأمور من التعقيد بمكانٍ، ومتشابكةٌ تشابكًا يعسُر معه أن نحيط بها إحاطةً تامَّة، ما دمنا لا نقدر أن نثقَ كلّ الوثوق بالكلمات واللغة. أشكّ في أنَّها كانت تشير إلى بيِّنة تفكيرها نفسها حين كتبت إلى مراسلتها الويلزيَّة: بوسعنا أن نكوِّن رأيًا بخصوص أيّ شيءٍ. وكذلك رأيًا مضادًّا.

في رسالتها الأخيرة إلى غوينفير، الرسالة التي عادت إليها وعليها ختمُ لم يعد يسكن في العنوان المذكور، تعلنُ:

تسألينني هل أتقدَّم. جوابي لا. لا بل أقول إنِّي اليومَ أبعد ممَّا كنتُه أمس. أكيد، أعرف أنَّ الشمسَ تُشرق وتغرب، وأنَّ الإنسان يولد ويموت، وأنْ لا شيء نهائيٌّ ولا ساكنٌ، وأنَّ الإنسانَ مستكشِفٌ ملقًى به في عالمٍ من النور المتقلِّب، الدائمِ الحركة.

ثم، في مكانٍ أبعد:

مُرهِقٌ فهمُ الآخر. لكنَّ الأصعبَ فهمًا والأشقَّ معرفةً؛ أغربَ الغرائب، وأجهل المجاهيل، هو نحن أنفُسنا.

ـ لم تصِلي إذن إلى أيّ نتيجة؟

طيلة حياتي المديدة، حاولت أن أفهم لمَ يأتي الإنسانُ إلى

العالم. والآن فهمت، الآن بتُّ أفهم، يبدو لي أنَّ الغشاوة زالت عن بصري: يولد الإنسانُ ليُحِبَّ.

قالت لي يومًا:

ـ تعلمين يا صغيرتي ديبا، أنَّ أهمّ خصال البشر هي الشجاعة.

والحقُّ أنَّ هذه العبارة تتصادى مع ما دوَّنَته هي نفسُها بقلم الحبر على حاشية «حياة حيوانيَّة»: **ينبغي أن أتحدَّث في الخاتمة عن بسالة الروح وعن الشجاعة.**

ساعةَ موته، سيقول شاعرٌ لجدولٍ صغيرٍ،
صديقِه الأعزّ:
أخبرني، هل ستتذكَّرني؟

شاءت الصدفة أن أنفرد بالخالة لحظة موتِها، عن عمرثلاثة وتسعين عامًا، أسبوعيْن بعد إصابتها بنوبةٍ قلبيَّة. كنت أزورها كلَّ يوم. جالسةً عند رأس سريرها، كنت أتحدَّث معها، ويُخيَّل إليَّ أنَّ صحَّتَها تتحسَّن. صحيحٌ أنَّها كانت تشكو من عجزها عن تحديد إيقاع قلبها، بسبب كلّ تلك الحبوب ـ على زعمها ـ التي كانوا يدفعون بها إلى بلعها.

ـ انظُري، هذا ليس نبضي.

طلبَت منّي أن أحمل إليها العطر الموجود في خزانة صيدليَّتها، فتحتُ لها سدَّادة الحُقّ، فاستنشقَت محتواه، ثم

وضعتُ منه قطراتٍ خلف أذنيْها. ثم أغلقته وطلبت منِّي أن أُعيدَه إلى مكانه.

كانت أمِّي قد غادرت للتوّ. والخالة فيفا، جالسةً على سريرها، تُحدِّثني عن الحياة، وأتذكَّرُ أنَّها، على جَري عادتها، أرادت أن تعرف كيف مرَّ يومي في العمل، وكم طفلًا وُلد. أرادت أن أُحدِّثها قليلًا عن تلك الأحواض التي صارت تُستعمل في الولادة، الأحواض التي تُسمِّيها مسابح، وعن رأيي في هذا التجديد. ثم استوثَقَت منِّي عنايتي بسقي نبتة البيغونيا. يكفيها نصف كأسٍ من الماء كلّ يوم. كما طلبَت منِّي أن أعتني بكرتونتها إلى حين عودتها إلى المنزل، من غير أن أُدرك مقصودَها من ذلك.

أمسكتُ بيدها.

قالت لي باسمة:

ـ إنَّ للفرح أهمِّيَّةً بالغةً، ما دُمنا قد حظينا بفرصة أن نولد.

ساعةُ القهوة تدنو. طلبت منِّي أن أذهب إلى الصالة المشتركة، فآتيها بفنجان قهوة، وقطعة كعك بالراوند. أرادت أن تتمدَّد قليلًا، إلى حين عودتي، فأعنتُها على ضبط وسادِها.

قالت هامسةً:

ـ شكرًا على كلِّ شيءٍ يا عزيزتي ديبا.

وإذ أرجِع التفكير، أرى غريبًا أن تضيف: كان شرفًا لي أن أخوض تجربة الحياة.

حين عدتُ، كانت قد ماتت.

قبل أن أغادر الغرفة، كانت قد ربَّتت على ظهر يدي بطرف سبَّابتها ووُسطاها، كما اعتادت أن تفعل، قائلةً:

ـ الاتِّفاقات يا صغيرتي ديبا، تذكَّري الصدفة والاتِّفاقات.

ثم ختمت بالقول، وأتذكَّر كلامها بوضوحٍ:

ـ سأعتني بصغيرِك.

كلُّ ما هو أصغر من الصغير

وإن لم تكن خالة أمّي تؤمن في الإنسان، إلَّا أنَّها كانت تؤمن في الطفل. أو لنَقُل بالأحرى: لم تكن تؤمن في الإنسان، إلَّا متى كان طولُه أقلّ من 50 سم. ويتوافق هذا الزعمُ مع مرويَّات زميلاتها في المصحَّة. بالنسبة إليها، ثمَّة الإنسان في جهة، والطفلُ في جهةٍ أخرى. كلّ ما هو صغير، ويفضَّل أن يكون أصغر من الصغير، كلّ ما هو ضعيفٌ وواهنٌ، إلَّا ويستحِثُّ اهتمامَها، ويوقظُ عنايتها وحنانَها. ويشمل ذلك عالمَ الإنسانِ، كما عالم الحيوان والنبات. نَسلُ الأنواعِ جميعها، خاصَّةً في بداية حياته، مباشرةً بعد الولادة.. الهِرَرة، والحملان، والأحصنة في يومها الأوَّل، وأُولى هندباءِ الربيع، وبيوضُ الطيورِ الهشَّةُ، والفراخ في أعشاشها، والذباب، والنحلُ، كلّ ما ضَؤُل وصَغُر يثير فيها الإعجاب والإحساس بالجمال، بما في ذلك حبيبات البطاطا. كانت تفضّل ثُمَيرات التوت الجبليَّة على جرعات السكَّر

الكبيرة، والبذور والبراعم أحبُّ إليها من النباتات المكتملة النضج. كانت تبتهج لبروز براعم خضراءَ دقيقةٍ ناعمة، على ساقٍ، فتداعبُها بأصابعها قائلةً: إنَّ الرقَّة علامةٌ لا تخطئ. كانت تهتمّ كذلك لكلِّ ما تتهدَّد الطبيعةُ وجودَه، كالحيوانات والنباتات التي تنخدع بوهم ربيعٍ وشيك، ربيعٍ يُبدي تباشيرَه في شكلِ نورٍ باردٍ يتسلَّل حتى أقاصي الأركان، ثم ما يلبث أن يختفي، بلا سابق إنذارٍ، تحت طبقةٍ سميكةٍ من الثلج، في الوقت الذي تبدأ فيه الأشجار تبرعمُ، والنعاجُ تطفل.

يكمن التناقض في المخطوطات، في كون الخالة تتنبَّأ بانقراض الإنسان، وتفترض في الآن نفسه أنَّ عالمَ المستقبل لا بدَّ أن يترك موضعًا للحيوانات والنبات، وأيضًا للأطفال. وليس الأطفال فحسب، بل أيضًا سينجو صنفان من البالغين. من جهةٍ، **أولئك الذين استطاعوا أن يحتفظوا بروح الطفل، أولئك الذين يستمتعون بالنفخ على بذور الهندباء، وما يزالون قادرين على الاندهاش**؛ ومن جهةٍ أخرى ـ ولا عجب في هذا، بحسب أختي ـ الشعراء.

فوضى

منذ مدَّةٍ غير بعيدة، سألتني أختي عمَّا أنوي فعلَه بهذه المخطوطات. وهل سأسعى في نشرها؟

في البداية، انتابني الانطباع بأنَّها نصوصٌ بلا ذيلٍ ولا رأس، ولا خيْطًا هادِيًا لها، لكنْ، بقَدر ما كنت لأتقدَّم في القراءة، كان ظنِّي في ذلك يضعف، ويترسَّخ عندي، بالمقابل، اليقينُ بأنَّ ما حسبتُه في البداية عملًا فوضويًّا، لا يثبت على موضوع، هو، في الحقيقة، عملٌ يتوافق تمامَ التوافق مع فكر الخالة، وهذه الفوضى هي تحديدًا ما يناسب هذا المشروع، ويخدمُ الهدف من هذه النصوص. إنَّها نصوصٌ تستمدُّ هيكلَها من غياب الهيكلة، وهي فوضى يسوسُها ضربٌ من النسق. حاولتُ أن أبيِّن لأختي أنَّ بناء العمل، أي هذا الخليطَ الغريب من موادَّ مختلفة، متوافقٌ مع تصوُّرات خالةِ أمِّنا، بالنظر إلى الطبيعة الإنسانيَّة عامَّةً من جهة، وبالنظر إلى طبعِها، هي، غير المتوقَّع من جهةٍ أخرى، مثلما أنّ

الحياة تتوقَّف على أهواء هذا العنصر المتعصِّب الذي تسمِّيه صدفة. من المنطقيّ إذن ألَّا تخضع كتاباتها للمنطق. إنَّ انسجامَها يكمن في لاانسجامها.

تسألني أختي:

ـ وبالتالي، هي غير جاهزةٍ للنشر؟

ـ للأسف، لا.

الحقّ أنَّني غير متفاجئةٍ من كون الخالة فيفا لم تجد ناشرًا لعملٍ بهذه الدرجة من الغرابة وانعدام التجانس. لنَقُل إنَّني أتفهَّم تمامًا، أن يكون مصيرُها الرفض.

والواقع، أنَّني صرفت كثيرًا من وقتي في محاولة تحديد أيُّها أقدَمُ، والتساؤل عن أيّ مخطوطٍ يُعدُّ صيغةً نهائيَّة، قبل أن أدرك أنْ لا أحد منها كذلك. أو بالأحرى، أنَّ ثلاثَتها تشكِّل الصيغة النهائيَّة، وأنَّها تستمدّ قيمتها من كُلِّيَّتها، أنَّ القيمة في كرتونة موز تشيكيتا كلِّها، وبالتالي ينبغي أن أنشرها كلّها.

قلت:

ـ يتعلَّقُ الأمر بعملٍ في فترة حمْلٍ، عملٍ لم يكتمل حقًّا ليُولد.

ـ هل هذا يعني أنَّك تتخلِّين عن النبش في هذه الأوراق؟

ـ نعم.

بعدما استأذنتُ من أختي، أعدتُ المخطوطات إلى كرتونة تشيكيتا، وأغلقتها بشريطٍ لاصق، ثم حملتها تحت جناحي، ونزلت بها إلى الطابق تحت الأرض، وفتحت القبو. وأنا أجهِّز

لها مكانًا على أحد الرفوف، اكتشفت سبع علبٍ لكُرات السمك أورا.

الشمسُ تجنح إلى الغروب، السماءُ تشتعل بحمرةٍ دامية. بعد قليل، يستحيل العالمُ بِركةً من حبرٍ أسود. رزم الهدايا التي أعددتُها، بمناسبة أعياد الميلاد، لأختي وعائلتي تنتظر على طاولة غرفة المعيشة.

حَالتي

عند استيقاظي، في اليوم التالي، كانت رائحةُ الطِّلاء قد اختفت.

كنت أتهيَّأ للذهاب إلى العمل، رنَّ الهاتفُ، على الطرف الآخر المصحَّةُ. كان مؤخَّرًا، حدثَ تغيُّر في إدارة الموظَّفين، مع التعيينات الجديدة التي وقعت. لذلك، تقدِّمُ المتَّصلةُ نفسَها باعتبارها مديرةَ الموارد البشريَّة الجديدة.

أطفأتُ الغلَّاية.

قالت لي إنَّها قد ناقشت حالتي مع زميلتيْن، أخبرتني باسمِيْهما لكنَّني لم أتعرَّف عليهما، وقد بدا لهما أنَّني قمتُ بعددٍ كثيرٍ من الساعات الإضافيَّة، خلال الأشهر الماضية. فضلًا عن أنَّني لم أحصل، في السنوات القليلة الماضية، إلَّا على جزءٍ من إجازاتي الصيفيَّة.

ـ لاحظنا كذلك أنَّكِ تعمَلين أيَّام أعياد الميلاد تلقائيًّا، ومنذ سنواتٍ.

خيَّم الصمت برهةً في الطرف الآخر من الخطِّ، ثم استأنفَت الكلام.

ـ أنا وزميلتايَ متَّفقاتٌ. ليس من العدل أن تداومي كلّ أعياد الميلاد. بل، تستطيعين أن تأخذي إجازةً حتى منتصف يناير.

ـ إجازة مدفوعة الراتب؟

ـ نعم، ما زالت لديكِ أيّامٌ لم تستفيدي منها.

أتحدَّث معها واقفةً عند النافذة، وألمح طائرَيْن يحلِّقان ضاربيْن بأجنحتهما، على خلفيَّة غيومٍ دكناء.

قالت:

ـ ثمَّة شيءٌ آخر.

تردَّدَت.

ـ يتعلَّق الأمر بالزوجيْن اللذين فقدا طفلَهما...

ـ نعم؟

ـ اللذين تكلَّفتِ بهما أمس.

ـ نعم؟

سألتني مديرةُ الموارد البشريَّة هل سلَّمتُ المرأةَ وثائق من ملفِّها الطبِّيّ، لا سيَّما نسخًا من تخطيط مراقبة قلب الجنين!

ـ تقصدين مارغريت؟ نعم، لقد أعطيتُها نسخًا من وثائق عمليَّة التوليد، بناءً على طلبها.

ـ كان عليكِ أن تستأذني.

باستثناء صُلبان المقبرة المضيئة، ما يزال العالم أسود.

يقينُنا الوحيد
يتلخَّص في هذا اللّايقين

لاحقًا، خلال النهار، انتبهتُ إلى أنَّ السماء قد تلوَّنت بصفاءٍ مصفَرٍّ غير واقعيّ. تلك هي اللحظة التي اختارَتها أختي لتَّتصل بي. لقد عادت من محطَّة المترو، متعبةَ الصوت. الاكتئابُ يدنو بأقصى سرعة. يبدو أنَّ العاصفة ستضرب سواحلَنا قبل الموعد المتوقَّع، أي نحوَ ساعةِ العشاء. فضلًا عن أنَّ اتِّجاه الريح قد تغيَّر، وذاك ما لم تتوقَّعه، لا هي ولا زملاؤها.

ـ يبدو أنَّها ستهبُّ من الشمال وليس من الغرب!

أخبرتُها أنَّ لي أيَّام إجازة، وأنَّني بالتالي سأكون حرَّةً خلال أعياد الميلاد. قالت إنَّه خبرٌ سعيدٌ، غير أنَّها لم تذكر عشيَّة الميلاد، وأخذت توشوشُ بالكلام هامسةً.

ـ الحقُّ، أنَّنا لا ندري ما الذي ينتظرنا!

صوتُها يرتجف.

ـ يقينُنا الوحيد يتلخَّص في هذا اللّايقين.

لكنَّ ذلك كلَّه لم يمنعها من أن تنصب شجرة الميلاد.

ختمَت بالقول:

ـ كالعادة، اضطررتُ إلى أن أزيِّنَ الشجرةَ بمفردي.

زلزالٌ سماويٌّ

الريح تشتدُّ. حُجبٌ رهيفةٌ من سحابٍ رماديٍّ تجوب السماء بأقصى سرعةٍ، كأنَّها دخانُ أتونٍ مشتعل. الجميع أسدل الستائر، والناسُ احتجَروا في شققهم، أو لاذوا بأماكن لا نوافذَ لها، إن كانوا، كما تقول أختي، محظوظين بامتلاك مكانٍ مماثل. خلَت الطرقاتُ من القطط. أظلمت السماء، والعواصف ما تزال عنيفةً. يتقعَّر زجاج الصالون إلى الداخل. أتراجعُ خطواتٍ، وأتّخذ مكانًا إلى جانب العذراء والطفل، بينما تهزُّ النافذةَ رياحٌ ذاتُ قوَّةٍ مهولة. على بعد خطوتيْن من شقَّتي، تقتلع الريحُ صفيحة قرميدٍ متموِّجةً، ثم أخرى، كأنَّها أوراقُ لعبٍ تلتقطها يدٌ من السماء. يسبق الرياحَ هديرٌ كهدير طائرةٍ تقترب. لا أدري حقًّا من أين تأتي الريح، يبدو أنَّها قد غيَّرت الاتِّجاه مرَّةً أخرى. يضَّاعف الضغطُ على النوافذ، كالتقلُّصات التي تسبق الولادة، وتنوس قممُ أشجار التّنوب في المقبرة، كنوّاس ساعة. جذوعها تكاد تنبطحُ أفقيَّةً أمام

الريح التي تنقضُّ عليها. دامت العواصف دهرًا، والجذور تتحرَّك كأنَّها أسنانٌ لبنيَّةٌ توشك أن تقع، تتحرَّك إلى الأمام وإلى الخلف، ثم ما تلبث أن تتحرَّرَ، فتُقتلع من الأرض. الجذوع تسَّاقطُ، جذعًا في إثر جذعٍ، كأنَّنا نشاهد فيلمًا بالعرض البطيء. لن تزداد أيُّ حلقةٍ جديدةٍ إلى حلقات شجرة التنّوب الأقدمِ في المقبرة، تلك الشجرة التي تأوي أعشاش ثلاثمائة زرزور. الأرض جسمٌ مهصورٌ في قميصِ الحبس الذي كان يُربَط به المجانينُ الخطرون، ثم ما يلبث خناقُ الرّيح الفولاذيّ أن يرخف للحظاتٍ، فيُخيِّمَ صمتٌ قاتلٌ، إنَّه الهدوء في بؤرة العاصفة، ثم تستأنف العواصف أقوى وأشدَّ، وتضربُ هبَّةُ ريحٍ أخرى العمارة. ونحوَ منتصف الليل، انقطعت الكهرباء عن الحيّ كلّه. ذهبتُ ألتمس شمعةً في درج المطبخ.

سمعت ضجيجًا هائلًا في الطابق أسفلي، كأنَّها نافذةٌ انكسرت ألف كسرة.

أَهذا اليومُ أوّلُ أيّامِ الدُّنيا أم آخرُها؟

انتهى بي المطافُ إلى النوم منتصف الليل، واستيقظتُ فجرًا. العاصفة آخذةٌ في الهدوء، لكنَّ النهار ليس جاهزًا بعدُ للطلوع. عدتُ للنوم، فحلمتُ بأنَّني في فضاءٍ شاسعٍ ممتدٍّ، أقرعَ، لا نبتةَ فيه، مجرَّد امتدادٍ من رملٍ تضرب فيه الرياح. السماء فوق رأسي، على بُعد أميالٍ وأميال، وفي البعيد يبزر حقل لافا أسود. هل تُرى الشمسُ أم لا تُرى؟ يُخيَّل إليَّ أنَّني أسفلَ قوس قزح يتحوَّلُ بغتةً إلى كرةٍ ذات واجهاتٍ متعدِّدة الألوان، معلَّقةٍ فوق الساحة التي أرقص فيها على أنغام *Born to Die*.

حين استيقظتُ للمرَّة الثانية، كان الوقت تقريبًا منتصف النهار. بقيت مستلقيةً في فراشي، وقد نسيت جزءًا من حلمي، لكنَّني ما زلت أتذكَّر التالي: هديرُ مروحة طائرة هليكوبتر، إكليلُ شجرة ميلادٍ برَّاقٌ، ونورٌ يعمي البصر. وصوت الخالة فيفا: إنَّ

النحل يؤدِّي رقصاتٍ معقَّدة.

أرخي أذنيَّ، أسمع كلبًا يعوي من شدَّة الألم. ثم صوت ضرْبات مطارق. أغادر سريري، أقصد إلى النافذة، وأفتح الأستار. الهواء ساكنٌ، والثلج يندف غزيرًا.

ولمَّا دخلتُ الصالون انتبهت إلى أنَّني نسيت الزيارة الليليَّة التي أتتني حين بدأ قرميد العمارة يتطاير، كما نسيت ضيفيَ الذي ينام على مخمل الكنبة المهدَّبة.

حين ارتفع النهار، وبرز صريحًا واضحًا، انتبهت إلى أنَّ الزجاج معفَّرٌ بالرذاذ، وأنَّ الفوضى في الخارج لافتةٌ للنظر.

لقد اقتلعَت العاصفةُ أشجارًا كثيرةً في المقبرة حيث الصلبانُ المنيرة ترقدُ متناثرةً في كلِّ مكانٍ. سطحُ الأرض جرحٌ مفتوحٌ، مشرَّعٌ وممزَّق. في كلِّ مكانٍ بالحيّ، ترى عددًا من فرق المنقذين ببزَّاتهم البرتقاليَّة. يسمِّرون ألواحَ خشبٍ إلى النوافذ المتضرِّرة، ويثبِّتون صفائح القرميد المتموِّج التي تغطِّي الأسقف. السماء مستلقيةٌ أرضًا، حيث تشكِّل بساطًا ناعمًا ونقيًّا.

استيقظَ زائري. جالسًا على السرير، يطوي غطاءَه ويبتسم لي، ثم يتَّجه إلى النافذة. طائرة هليكوبتر تحلِّق فوق المقبرة، على ارتفاعٍ منخفض.

أطهو بيضًا في مرجل.

قال الأستراليّ:

ـ عندنا تحترقُ الغاباتُ، وهنا تتطايرُ الأسقفُ.

عليه أن يصعد إلى الطابق ليجريَ اتِّصالًا.

قال:

ـ لقد وعدتهم بأن أتَّصل.

انكسر أحد جذعَي شجرة القيقب في الحديقة، خلال الليل. سقط على نافذة غرفة جارتي بالطابق الأسفل. طرقتُ بابَها. أطلعتني على الأضرار، وقالت إنَّها، بمحض صدفةٍ، كانت في المطبخ، حين انفجر الزجاج إلى ألف قطعةٍ. أو تحديدًا، حين انفصل أحد الجذعيْن عن الأرض، كما ينفصل سلُّم ركَّابٍ عن طائرة، وانقضَّ على النافذة. أمَّا الآخر فما يزال قائمًا، كسقالة العمَّال التي يبدو أنْ لا شيءَ قادرٌ على زحزحتها.

جعلنا نتأمَّل شظايا الزجاج المتناثرة أرضًا، والستائر الممزَّقة.

قالت:

ـ أغرب ما في الأمر، أنَّ النبتة الموضوعة على حاشية النافذة لم تتحرَّك أنملةً.

عندما صعدت إلى بيتي، شغَّلت التلفاز. وكما هو متوقَّعٌ، كانت النشرات تتطرَّق حصرًا للعاصفة وما خلَّفَته من أضرار. تتوالى لقاءاتٌ مع رؤساء الأمن المدنيّ، وربورتاجات حول تدخُّلات فرق الإنقاذ. ولوهلةٍ، خُيِّلَ إليَّ أنِّي لمحتُ ڤاكا على الشاشة. لم تقتلع الريح قطع القرميد المتموِّجة فحسب، بل أخذت معها أسقفًا بأكملها، كما ألقت الزوابع بحافلةٍ في بركةِ تيورنين، وأطاحت برافعةٍ في الميناء، وطارت حافلةٌ صغيرة. يبيِّن ربورتاج المراكب تعبث بها أمواجٌ هائلةٌ، تبدو قممها كأنَّما

تلامس السماء. وتشرح الصحفيَّةُ المعلِّقةُ بأنَّ الأمواج المتكسِّرة قد خلَّفت في الشوارعِ حجارةً تزن مئات الكيلوغرامات، تعوق حركة السير في وسط المدينة. انفرطت مراسي مركب صيد، وانتهى المطاف به راسيًا على حاجز الأمواج، خامدًا، بارزًا، كأنَّه وحشٌ فولاذيٌّ طالعٌ من أغوار التاريخ. عددٌ كثيرٌ من المراكب الأخرى، الأصغر حجمًا، غرقت في الميناء، أو تعرَّضت لأضرارٍ بليغة. وختمت الصحفيَّة بالقول إنَّ العاصفة قد أحدثت خَرقًا في حاجز الأمواج، وإنَّ هيكل حُوتٍ، لا بدَّ أنَّه حوت عنبرٍ كبير، يرقد الآن، نصف مغمورٍ بالماء، إلى جانب قاعة الحفلات هارْبا.

العالمُ وُلد لتوِّه

أسمع باب العمارة يُفتَح، ولحظاتٍ بعد ذلك تظهر، عند بابي، زميلتي في بذلة المنقذة. قضت الليلَ بأكمله في عمليَّاتِ إنقاذٍ، هنا وهناك. ظننتُها أتت تستلقي عندي برهةً لترتاح، لكنَّها كانت موشكةً على العودة إلى منزلها، ولا وقت لديها. متَّكئةً برأسها على هيكل الباب، كانت تريد منِّي خدمةً. قالت وهي تغيِّر وضعيَّتها عند المدخل، إنَّها كانت قد وعدت بقيادة خَرجةٍ لمشاهدة أضواء الشفق الشماليّ. أغمضت عينيْها.

أضافت مؤكِّدةً:

- منذ وقتٍ طويل.

- ألم تُلغَ الخَرجةُ.

حرَّكت قدميْها على عتبة الباب.

- هنا المشكل. لم تُلغَ، إذ ينبغي أن نريَ السيَّاح الذي أتوا

شيئًا. مع الأخذ في الاعتبار ملاءمة أحوال الطقس.

ـ وهل سيكون الطقس ملائمًا هذا المساء؟

ـ نعم. لقد اتَّصلت بي شركة أضواء الشفق القطبيّ، ويفترض أن يكون المساء مثاليًّا؛ مناسبةٌ لم تَلُح منذ أسابيع.

أغمضت عينيْها، مجدَّدًا، للحظاتٍ. تبدو منهكةً بعد ليلةٍ قضَتها في عمليَّات الإنقاذ. ثم انتصبت واستأنفت كلامها:

ـ يكفي أن يحلَّ الليلُ، وتصفو السماء.

ما زلتُ أنتظر الخدمة التي أتت تسألنيها.

ـ حسنًا، أريد منكِ أن تحلِّي محلِّي هذا المساء.

ثم أضافت بعد تردُّد:

ـ علمتُ أنَّكِ في عطلةٍ حتى منتصف يناير.

ـ تقصدين أن أحلّ محلَّك كدليلٍ للسيَّاح؟

ـ نعم، كدليلٍ.

ـ أهي خَرجةٌ في حافلة؟

ـ نعم، في حافلة، وإلَّا لما كانت خرجةً لمشاهدة أضواء الشفق القطبيّ. ليس ثمَّة حاجةٌ إلى التوغُّل بعيدًا، فقط ما يكفي من المسافة للابتعاد عن تلوُّث المدينة الضوئيّ.

ـ ستجلسين في المقعد الأماميّ، وتتحدَّثين في الميكروفون.

ـ ماذا أقول؟

ـ تشرحين لهم أنَّ جزيئاتٍ مشحونةً بالكهرباء، تأتي من الشمس، فتدخل الحقل المغناطيسيّ الأرضيّ، على مقربةٍ من

القطبيْن، حيث تتحرَّك بسرعةٍ كبيرة، على امتداد الممرَّات الحلزونيَّة، وأنَّها أثناء مرورها تحفِّز جزيئات طبقة الجوّ العليا، فتُنتج هذه طاقةً تتجلَّى في شكل شفقٍ قطبيٍّ شماليّ.

أغمضت عينيْها مجدَّدًا.. أو في شكل أضواءٍ قطبيَّةٍ جنوبيَّة، عند القطب الجنوبيّ.

استمهَلَت نفسَها برهةً.

ـ ثم تشرحين لهم أنَّ الألوان الخضراء والأرجوانيَّة، مصدرُها الأوكسجين والأزوت المحفَّزَيْن. أمَّا في طريق العودة، فليس عليكِ أن تقولي شيئًا.

بعد أن انصرفت ڤاكا إلى بيتها لترتاح، طرقت باب الشقَّة فوق. وطرقت الموضوع مباشرةً: هل لي أن أدعوَ جاري إلى جولةٍ ليليَّةٍ لمراقبة الشفق القطبيّ.

قلت له:

ـ سننطلق في الثامنة مساءً، إن لم تكن مشغولًا طبعًا.

جعل يتفحَّصني.

ـ نعم. شكرًا.

الطريق أمامنا يكتنفُها النور

الهواء منعش، القمر منتطِقٌ بهالةٍ زرقاءَ فاتحة. وباستثناء ألوان السماء، العالمُ أسود. حضر السائق، وحيَّاني بإشارةٍ من رأسه. يرتدي كنزةً من صوفٍ تحمل شعار الشركة.

ـ بْراغي رايموند.

سألته عن اسمه الشخصيّ الثاني. قال لي إنَّه اسمٌ شائعٌ في عائلته منذ زمنٍ بعيد. واحدٌ من أخواله يُسمَّى رايموند براغي، وكذلك كثيرٌ منهم يحمل اسمَ غيسلي رايموند. وبعد برهة تفكير، جعل يعدِّد حمَلَةَ اسم رايموند: ستيرمير رايموند، بُوي رايموند، صامويل رايموند.

ثم طرق برنامجَ النزهة. حرص على أن يوضِّح: لا يكفي أن تصفو السماء لكي نضمن ملاحظة أضواء الشفق القطبيّ، قد نضطرّ إلى البحث عنها. عيَّنتُ له المكانَ الذي أنوي الذهاب إليه، فأجابني أنَّه أبعد من المكان الذي اعتادوا الذهاب إليه. لم أجُب البلدَ كثيرًا هذا الشتاء. إنَّه يشبه صورةً ملتقطةً بكاميرا

بولارويد، باهتة الألوان. بينما نعبر الضاحية، أسرَّ إليَّ بأنَّها ليست المرَّة الأولى التي يرافق فيها قابلةً، وأنَّه اشتغل كذلك مع ممرِّضات. ينبغي للأدِلَّاء أن يكونوا على علم بمبادئ الإنقاذ، من الجيِّد إذن أن يكونوا من هيأة المهن الطِّبِّيَّة. هو أبٌ لأربع طفلاتٍ، وكانت أوَّلُ ولادةٍ صعبةً، لكنَّ البقيَّة مرَّت على ما يرام. أمَّا هو فوُلِد ولادةً قيصريَّة.

واصل الكلام:

- قبل أن أعمل في مجال نقل السيّاح، كنت إطفائيًّا، ثم سائق إسعاف.

ثلاث مرَّاتٍ قبِل أطفالًا كانوا متعجِّلين الخروج إلى الدنيا، فوُلدوا على متن سيَّارة الإسعاف؛ أوَّلهم وُلد عند موقف الباص، في شارع ميكلابرويت؛ والثاني قبالة متجر إيكيا في كارداباير؛ والثالث، قرب المخبز الواقع على بعد خطوتيْن من المكتبة الوطنيَّة.

- واليوم، أنا أستمتع بالبلد بدلًا من أن أتدخَّل في الحوادث والحرائق.

تجبِره صفائحُ الجليد، فضلًا عن الحُفَر الكثيرة، على أن يرفع قدمه عن الدوَّاسة بانتظام.

لزم الصمتَ لحظاتٍ، ثم استأنف الكلام:

- أتساءل أحيانًا: هل بوسعي أن أكون فلَّاحًا؟ من الجيِّد أن يستطيع الإنسان تحقيق اكتفائه الذاتيّ من الغذاء، خلال الوباء القادم؛ أمَّا جوابي عن سؤالي، فهو: لا أدري. أشياءُ شتَّى، أجهلها. في مهنتي، ألتقي بأناسٍ من كلِّ نوعٍ، أُناسٍ سافروا شرقًا وغربًا، لم يتركوا مكانًا من العالم، فيتساءَلُ المرءُ: ما الذي

يعرفونه أكثر ممّا نعرف؟ أحاول أن أستبينهم.

بينما يناجي نفسَه، على هذا النحو، يمضي مركِّزًا في الطريق، لا ينظر إليّ. أطلب منه أن يتوقَّف عند حافَّة الطريق، وأتناول الميكرفون. في نور أضواء الباص، تبرز للعيْن بقعٌ من ترابٍ، وأكوامٌ من ثلجٍ أعلى تلال اللافا. ركَن السائقُ الباصَ، وسحب فرامل اليد، وذكَّرني أن أنبِّه الركَّاب إلى ضرورة الحذر عند النزول. تقدَّم السيَّاح في ممشى الحافلة، بين المقاعد الفارغِ نصفُها، ونزلوا بحذر. وكانوا يتوقَّفون برهةً عند عتبة باب الحافلة، ويستنشقون الهواء المتجمِّد. الليل حالكٌ، والبرد ينهش الخدود.

قال براغي رايموند:

ـ اطلبي منهم ألَّا يبتعدوا كثيرًا، وأن يبقوا مجتمعين.

الثلجُ يسقط متقطِّعًا، وأنا أستفتح السيرَ، تتبعني المجموعة في صفٍّ، واحدًا في إثر آخر، وأنفاسُنا الحارَّة تلوِّن الليل الرماديّ. السائق آخِر من يغادر الحافلة، عاريَ الرأس واليديْن، ملقيًا كنزته على كتفيْه. في موضعٍ قريبٍ جدًّا، تجمَّعت بعض الخيول، وقد غطَّى أعرافها الجليد. أشجارُ بتولا قزمة تهتزّ، معلَّقةً عند حافَّة صدعٍ تغلي فيه، بعيدًا عن أقدامنا، الصهارةُ المتوهِّجة. أمَّا السيَّاح، فقد تجمَّعوا على حجر البازلت الأسود، على مرمى حجرٍ من الحافلة الصغيرة، رافعين رؤوسَهم، منتظرين أن يكفّ وابل الثلج، أن تنكشف السماء، وأن ينبسط عرضُ الألوان المتماوجة، في الجوّ. جهَّزوا آلات تصويرهم.

مدَّ لي جاري، ساكنُ الشقَّة بالأعلى، قفَّازيْه.

ابتسمت له.

أمُّ الشفق القطبيّ، مولِّدَةُ أضواء الشمال

يصعد الركّاب إلى الحافلة راكبًا راكبًا. أعود إلى مكاني. إنَّهم جلوسٌ، صامتون، مغلَّفون بمعاطف النورك، وقد غطُّوا رؤوسهم بقلنسواتهم، وعقدوا على رقابهم إيشارباتهم.

سألني السائق:

ـ هل هذه المرّة الأولى التي تقودين فيها خرجةً مماثلة؟

أومأتُ موافقة.

واصل الكلام:

ـ لقد اعتمدتِ طريقةً غير مألوفة. كنت أجهل أنَّ العلماء قد أحصوا هذا العددَ من النجوم. كم قلت؟

ـ خمسمائة وستُّون ألفًا.

ـ وكم مجرَّة شبيهة بمجرَّتنا اللبنيَّة؟

ـ مائتا مليار.

صمتَ، غائصًا في أفكاره.

ـ إنَّها المرَّة الأولى التي أسمع فيها دليلًا يتحدَّث عن الكهرباء بهذه الطريقة.

رفعَ حرارة التكييف.

ـ ما قلتِهِ عن جدَّاتك، أولئك النسوة القابلات اللواتي كنَّ يجبن البلاد، بمفردهنَّ، في عزِّ الشتاء، وفي كلِّ فصلٍ. النسوة اللواتي كنَّ يتِهن، يضيِّعن الطريقَ والاتِّجاه، ويُغمى عليهنَّ بين السماء والأرض، ثم يجدن طريقهنَّ أحيانًا، أحيانًا فقط. . سردُكِ كان مشوِّقًا وأثار اهتمامي. وأعترف لكِ أنَّني تأثَّرت غاية التأثُّر حين قُلتِ إنَّ أمثَل وقتٍ في السنة، لفهم طبيعة النور، هو تحديدًا الوقت الذي يكون فيه أندَرَ من أيِّ وقتٍ. بالمقابل، لست متيقِّنًا من أنَّ الجميع قد فهم قصدكِ حين قارنتِ بين الكائن البشريّ الذي ينمو في الظلمات وحبَّة البطاطا. لاحظت أنَّ كثيرًا من الركَّاب غلبهم النعاسُ في طريق العودة؛ أمَّا أنا، فكنت متيقِّظًا، لأنَّني السائقُ، ولأنَّني كنت أنصت بانتباهٍ لحديثكِ. عليَّ أن أُقرَّ بأنَّها المرَّة الأولى التي أسمع فيها دليلًا يصرِّح بأنَّ الإنسان لا يُشفى من كونه وُلِد. كيف عبَّرت عن ذلك؟ إنَّ أصعب شيءٍ هو اعتياد النور! لست متأكِّدًا ممَّا إذا كان الجميع قد فهم مقصودكِ.

لزمَ الصمت بينما ننزل ساحل أرستونسبركا الكبير.

استأنف الكلام:

ـ لا نرى أضواءَ الشفق القطبيّ في كلِّ نزهة. لكنَّني، سأظلُّ أرافع عن أمِّ أضواء الشفق القطبيّ، حتى حين لا يحالفنا الحظُّ في رؤية الظاهرة. فأنا على يقينٍ من أنَّني أراها، يقيني بأنَّني رجلٌ، ويقيني بأنَّني زوجٌ وأبٌ لأربعة أطفال، ويقيني بأنَّ اسميَ براغي رايموند.

انظروا..
إنَّ السماء تصفو

أبطأ النهار في الطلوع. أخيرًا، بدأنا نلمح في السماء، فوق المقبرة شريطًا أزرق، يتّسع شيئًا فشيئًا، وبدأت أوراق الأشجار المغطّاة بالجليد تلمع فوق القبور. غادرتُ السريرَ، وشغَّلت الغلّاية. المقبس يعمل جيِّدًا. على هاتفي رسالةٌ من الكهربائيّ.

سايديس أفضل حالًا
إنَّها في الحديقة
تصنع من الجليد
ملاكًا أبيض رشيقًا
يشبه ساعةً رمليَّة

أفتح النافذةَ، أتنشَّق بعمقٍ الهواء المنعش، فتمتلئ به رئتاي.

حجابٌ من ضبابٍ شفيفٍ يكنفُ الشمسَ. أغمض عينيّ، فيحطّ على جفنيّ ضوءُ الجُرم النهاريّ ودفؤه.

تستطيع أن تأتي الآن، أيُّها النهار
أنتظرُ
أن تطلع

كلُّ شيءٍ أبيض
كلّ شيءٍ فارغٌ وخلاء
ضوءُ شاشة حاسوبي
يختلط بالضوء
الذي يعكسُه الثلج

أنتظرُ
تحت سماءٍ جديدة
ت ح ت أ ر ضٍ ج د ي د ة
ذ س م ع
غ ذ ا ء
ط ا ئ ر

تنويهٌ بخصوص المراجع

القبسات عن بليز باسكال (ص 13 وص 15) هي من كتابه خواطر. من شعر توماس ترونسترومر، اقتباسٌ من قصيدة (ص 88)، وإحالةٌ غير مباشرة (ص 168). قصيدة تين ستاينر «أريد أن أرى دمك يسيل...» مذكورةٌ في الصفحتيْن 88 و152. الأبيات المذكورة في الصفحة 130 هي لهنري سكوت هولاند، وعنوان المجموعة الشعريَّة المذكور في ص 152 هو لإليونور وايلي. عنوان الصفحة 171 هايكو لخورخي لويس بورخيس، يرِد في haikuDiecisiete، مقتطفٌ من مجموعة La cifra، المنشورة في الأرجنتين سنة 1981، وعنوان الصفحة 221 بيتٌ لعبد المجيد بنجلون.

حين دُعي الأيسلنديُّون، في استطلاع رأي، إلى اختيار الكلمة الأجمل في لغتهم، لم يتردَّدوا في اختيار اسم المهنة الأنبل «قابلة»، والتي تعني في الأيسلنديَّة، حرفيًّا، «أمّ النور»... في هذه الرواية البديعة، تتقصّى قابلةٌ المسار الذي يقطعه الإنسان من ظلمات الرحم إلى ظلمات القبر، محاولةً الكشف عن لغز الألغاز، عن أعجب الأشياء، عن النور... إنَّها روايةُ الحدود القصوى، روايةٌ عن الوجود والعدم، عن هشاشة الإنسان، وعن تفوُّق الحيوان، عن وجودنا الطارئ وعن ومضة الحياة التي مُنِحناها بين ظُلمتيْن... مَن بوسعه أن يستجليَ أبعادَ الحياة أفضلَ من المرأةِ التي على يديْها نأتي إلى العالم؟ ومَنْ بوسعه أن يتساءل عن ماهيَّة النور أعمق من مؤلِّفةٍ تنتمي إلى القسم الأظلم من العالم، حيث يسود الظلام شهورًا، وحيث كلّ التماعةِ ضوءٍ مناسبة للتأمُّل والفرح!



أودو آفا أولافسدوتير كاتبةٌ آيلسنديَّة. حازتْ روايتها «فندق الصمت» الصادرة عن دار الآداب جائزة المجلس الأعلى للأدب الإسكندينافيّ، وجائزة أفضل روايةٍ آيسلنديَّة.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب